الدعوةُ والتبليغ بينَ الأَجْرِ والأُجْرَةِ

سؤال: هل تجوز الاستفادة الشخصية من وسائل الإرشاد والتبليغ مع أن الآية الكريمة تضع قاعدة الاستغناء: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾؟

الجواب: هناك خمسة أنبياء كرام قالوا لقومهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ وهم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط ﷺ، وفي مواضع أخرى يعبر إبراهيم وموسى ﷺ عن هذا المعنى أيضًا، ولكن هذا التعبير أي ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ وارد في حقّ الأنبياء الخمسة المذكورين أعلاه، كما عبر الرجل الصالح "حبيب النجار" عن هذا المعنى في سورة "يس" عندما قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٢٠-٢١). ويعبر نوح ﷺ عن هذا المعنى أيضًا في موضع أخر ولكن بكلمات أخرى، أي إن الأنبياء العظام ﷺ لا يسألون الناس أيّ أجر مقابل قيامهم بوظيفتهم في الدعوة إلى الله ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاء: ٢٦/١٠٩)، إذًا فهذا عهدٌ أعطاه كل نبي لله تعالى بألّا يسألوا الناس -مقابل أدائهم لوظيفة النبوة- أيَّ أجرٍ أو نفعٍ.

وعلى كل مَنْ أَخَذَ على عاتقه مهمّة التبليغ ونشرِ الحقّ الاقتداءُ بالأنبياء العظام، وعلى كلّ مَن يقوم بالخِدمة من أجل الله سائحًا في القُرى والبُلْدان أن يترفّع بنفسه عن قَبول أيّ أجرٍ أو منفعةٍ مقابلَ خدماته في نشر الحقّ والحقيقة؛ لأن تأثير كلامِهِ على الناس في يدِ الله تعالى، وقد ربطَ الله تعالى تأثيرَ كلام هؤلاء بنسبة إخلاصهم وصِدقهم وإيثارهم لغيرهم وعدم انتظارهم أيّ شيء مقابل أدائهم لوظيفة الإرشاد، لذا كان كلام الأنبياء العظام والأصفياء مؤثرًا، فإذا كان الكلام لا يؤثّرُ كثيرًا في أيامنا الحالية فلأنه لم يَحُزْ على بعض الشروط الضرورية للتأثير.

أجل، فالله تعالى لا يجعل لكلام الذين يريدون تحصيلَ الأجر في الدنيا أيَّ تأثيرٍ أو قبولٍ في النفوس، وهذا من الأهمّية بمكان، إلى جانبِ أن الذين يقومون بوظيفة الإرشاد والدعوة عليهم أن يقتدوا بالأنبياء العظام فَيَرْبَؤُوا بأنفسهم عن أيّ أجرٍ دنيويّ مقابلَ إرشادهم ونَشْرِهِم الحقَّ، وهذا يجنّبهم التعرّض لانتقادات أهل الدنيا، لأن أهل الدنيا سيقولون "إن هؤلاء يقومون بنشر الحقّ، ولكنهم يتمتّعون بثمرات عملهم هذا في الوقت نفسه ويؤمّنون عيشهم بهذا الطريق"، ألا ترون أن قارئ الموالد النبوية ينشدُ المدائحَ النبويّة ويعظّم الله تعالى بكلماته، ومع ذلك يتعرّض للنقد وللغمز واللّمز؟... وما ذاك إلا لأنه يتحصل على الأجرة مقابل ذلك، وكأنه يقول "لقد مدحتُ الله تعالى... إذًا أعطني مالًا"، لذا فلا يؤثّر كلامه ولا مدائحه في ضمير الشعب، وما دامت النية كسبَ المال فلن يكون له أي تأثير، ولكنك ترى في جانب آخر واعظًا في مسجد أو زاوية ما، يبتغي وجه الله فقط، ذا صوت ضعيف ولكنه يؤثر في سامعيه تأثيرًا بيّنًا، فتأثيرُه متوقّفٌ على مدى استغنائِهِ عن الناس عند قيامه بنشر الحقّ.

فيا ليتَ شِعري كم يتمنى القلبُ ألّا يلتفتَ إلى الدنيا ومتاعِها القائمونَ بمهمَّةِ الدعوة إلى الله وخدمة الإسلام والقرآن، والذين يسعون إلى أن يجعلوا من هذه المهمة طريقًا يوصلهم إلى مرضاة الله، والقدسيون الصنّاع الحقيقيون للمستقبل، والمثقفون والمباركون الذين يعشقون النور، وأن يحافظوا على أنفسهم ويصونوها من كل دَنَسٍ ومن كلّ شائبة، وأن يكون الاستغناء عن الناس شعارهم، وألّا يطلبوا أجرًا من أحد مقابل خدمتهم في نشرِ الحق، وأن يكتفوا بالكفاف، وألّا يتركوا عندما يرحلون عن الدنيا دارًا ولا مالًا، ويمكننا أن نقول جازمين: إنّه لا أحدَ من العظماء على مستوى العالم حتى يومنا هذا كان يملك بيتًا أو متاعًا دنيويًّا.

عندما تدلف إلى الروضة الشريفة في المدينة المنورة تجد بابًا يدعى بابَ عمر، فأين البيت الذي بقي من عمر وما أدراك ما عمر!؟ وهو من كان على رأس الدولة الإسلامية، وهو من وَطِئَتْ حوافرُ خيلِ جيشِهِ شواطئَ بحر آرال، وفتح البلادَ ودوّخَ العباد، فليحذرِ الدعاة من تضخيم ثرواتهم وتكبيرِ تركاتهم، ولا يحرصوا على اقتناء الدُّورِ والأموالِ والأملاكِ، بل عليهم أن يعيشوا مستغنين عن الناس، ولقد رأينا في عصرِنا الحاليّ أحدَ الدعاة الذين تجشّموا الصعوبات في سباق خدمة ديننا وأمتنا عندما توفّيَ لم يجدوا في مِحْفَظَتِهِ سوى خمسٍ وعشرين قطعة نقودٍ من فئة خمسٍ وعشرين قرشًا... فما أحسنه من مثال، إذ عَلَّمَ الأصدقاء والأعداء، وأكّدَ للجميعِ أنَّ خِدْمَةَ الإسلام ليس وراءها طمعٌ في أيِّ عَرَضٍ من أعراض الدنيا.

أجل، إن على الدُّعاة أن يؤمّنوا قوتَ عيالهم كيلا يُلجِئوهم إلى السؤال، وأن يعلّموهم ليكونوا أصحابَ مهنةٍ أو وظيفة، فلا بد لمن يُبلِّغون الإسلام

ألّا ينشدوا حقَّ الانتفاع مقابل ذلك، وألّا يبحثوا عن رغباتهم الشخصية، ليس هذا فقط؛ بل عليهم أن يضحّوا حتى بالفيوضات المادية والمعنوية لكي يحافظوا على الثقة بهم، عليهم ألّا يهتموا بحياتهم الشخصية، بل بإحياء النفوس، فإن فعلوا ذلك لم تستطع الدنيا ولا إغراءاتها أن تنفذ إلى حياتهم ولا إلى خيالهم ولو للحظة عابرة، وإلّا فقدوا الثروة الحقيقية (وهي ثقةُ الناس بهم والصفاءُ والنقاء) التي اكتسبوها، فلا يفلحوا بعد ذلك أبدًا، والذين يركضون وراء الدنيا وهم يسيرون في سبيل تحصيل مرضاة الله تعالى ستكون عاقبتهم وخيمةً، وسينالُ حتى عيالهم وأحفادهم نصيبًا من هذه العاقبة، وعندها يتألّمون ويتأوّهون.

على الدعاة إلى الله أن يعيشوا حياةً ملؤُها الإخلاص والاستغناء عن الناس بحيث يشهد الجميع حتى سكان الملإ الأعلى لهم بالإخلاص ويقولون "هؤلاء هم المخلصون"، فمن لم ينجح في امتحان الدنيا سيرسُب حتمًا في الآخرة، ومن رزح تحت ثقل الدنيا تعوقه العقباتُ الكؤود التي أمامه، أما من تغلّبوا على الدنيا فكانوا دائمًا من بين الذين تجاوزوا دنياهم وأنفسهم، فكم من بطلٍ لم يخلف وراءه تَرِكةً سوى جوادٍ وسيفٍ ورمحٍ، وعندما حضرت الوفاة خالد بن الوليد ﷺ -وهو الذي قضى على إمبراطوريتين عظيمتين- قال: "لم أُخَلِّفْ ورائي سوى جوادي وسيفي"، والحقيقة أنه يصعب فهم هؤلاء، لذا لا يملك الإنسان نفسَه من القول لمثل هؤلاء "قل لي بالله عليك أأنت ملَك أم صوفي أم درويش؟! قل لي مَن أنت؟". أجل، إن رجلًا مثل خالد بن الوليد ﷺ الذي حوّلَ إمبراطوريَّتي فارس والروم إلى أثرٍ بعد عين لم يُخَلِّفْ وراءه ترِكَةً سوى جواد وسيف، ولكنه يعيش في قلوبنا إلى الآن، وسيبقى كذلك حتى يوم القيامة.

وحُمادى القول: إن الدعوة إلى الله مرتبطةٌ مع صفة الاستغناء عن الناس ارتباطًا وثيقًا لا انفصام له، لذا فعلى الدعاة المخلصين اليوم الذين ترفّعوا عن حُطامِ الدنيا ومتاعِها أن يُفكِّروا في نصرة القرآن الذي بقي وحيدًا دون نصير منذ ثلاثة قرون، وفي روحانية الرسول ﷺ الذي ينتظر جيل الفجر الجديد، وأن يأخذ هذا التفكير بمجامع قلوبهم إلى أن يملأها فلا يُبقي فيها مكانًا لأيّ شيءٍ آخر، إن الدنيا تنتظر اليوم عهدًا جديدًا، والذين يمثلون دعوة الإسلام والقرآن الآن يُهَدهِدون بِتَرنيمة انبعاثٍ جديدة، وما ذكرناه حتى الآن هو صفةٌ واحدةٌ فقط من صِفاتِ هؤلاء.

والجانب الآخر من هذه المسألة هو: أنّ القائمين بخدمة الإسلام والقرآن عليهم ألّا يربطوا معيشتهم بأمور هذه الخدمة، وإن هذه الأمّة أمة غيورة، فلن تدع العاملين المخلصين وحدَهم، بل تعاونهم وتساعدهم، ولكن على العاملين أن يكونوا مستغنين وألّا يطلبوا شيئًا، ولكن لا بأس من قيامهم بأخذ ما يكفي لإقامة الأَوَدِ، وأنا أستند في هذا إلى قوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ (سورة التَّوْبَة: ٦٠/٩)، فالعامل في سبيل خدمة المسلمين والذي يجمع الضرائب والزكاة لصالح المسلمين له الحقّ في الاستفادة منها وإن كان غنيًّا، لذا لا أرى هنا أيَّ محظورٍ عند قيامهم بأخذ ما يكفي لمعيشتهم، ولكن أُكَرّرُ وأقول إن الأساسَ عند جنود الخدمة هو الاستغناء وعدم مدّ أيديهم إلى الناس أو انتظار شيء منهم، وهذه السِّمةُ من الصفات المهمة لهؤلاء الأبطال الذين يريدون أن يهيئوا غدًا مشرقًا للإنسانية.

خصائص التبليغ

سؤال: ما الخصائص التي لا بدّ من مراعاتها عند تعلمنا للدين وتعليمه لغيرنا، وما الذي يجب أن يكون عليه منهجُنا في التبليغ؟

الجواب: التبليغ هو غاية إرسال الرسل، ولذا فإن أهمّ وظيفةٍ حياتيّةٍ تقع على عاتقنا هي شرحُ المسائل التي كُلّفنا بها وتبليغُ الناس إيّاها، وأُولى وظائفنا هي إعادة النظر في جميع الأصول والمناهج القديم منها والجديد في هذا الموضوع، وتطبيق المبادئ التي نسلم بإمكانية تطبيقها في عصرنا والتي نؤمن بأنها تفضي إلى نتيجةٍ فاعلة، وليس من الصحيح أن نحصر مسألةَ التبليغِ في المعلم والطالب أو إمام المسجد والمؤذن أو المدرسة والمسجد، بل ينبغي لكلِّ مُكلّفٍ أن يخدم حيث هو في إطار أصول هذه الخدمة.

فالإنسان تلميذُ الحياةِ الدؤوب؛ بمعنى أن الحياة بالنسبة له هي أهم المدارس وأخطرها، والمدرسة بمعناها الخاص لا تتعهّد أو تتكفّل إلا بمسائل فرعيّة في الحياة، والأساتذةُ والشيوخُ ذوو الخبرات فيها يمحّصون ما اكتسبوه من خبرات ويحاولون نقلَها إلى تلاميذهم، بيد أن كل فردٍ في مدرسة الحياة العامة هو في الوقت نفسه تلميذٌ وشيخٌ وأستاذٌ، فهو يُعلّمُ ويَتعلّمُ باستمرار.

ولا يختلف الوضع بالنسبة لمسألة الإرشاد والتبليغ، فالمسائل التي يتمّ تعليمها أو تعلُّمها في المدارس لا تُشكّل إلّا جزءًا من منظومة هذه الوظيفة، ولا يستطيع الإنسان بالمعلومات التي اكتسبها هناك إلّا أن يرقى إلى مستوى معين، غير أن نظرته إلى الحوادث والأشياء تتغير وتتطوّر، ويتّسع أفقه، فيتمكن من حمل وظيفة الإرشاد والتبليغ إلى أندادِه وأَتْرابه.

لكن هذه المهمة لا تتوقّفُ عند ذلك، بل سيتعلم بعد انطلاقه في الحياة أشياء محاولًا تقديم ثمار تجاربه التي حصل عليها إلى من حوله، ولذا فالإنسان مضطرٌّ أيًّا كان عمره أو مستواه إلى شرح المسائل التي تعلمها إلى الآخرين، وهذه هي أهمُّ وظيفةٍ حياتيّةٍ بالنسبة له.

وفي الواقع هذه هي الغاية من وجودنا؛ لأن الحقّ تبارك وتعالى أرشَدَنا بقوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (سورة الذّارِيَاتِ: ٥٦/٥١)، إلى أن العبودية هي الغاية من خلق الإنس والجن، والجميع يتنافسُ في إطار مفهوم العبودية، فمنهم من يتعثر ويظلّ في الطريق ولا يبرحه ومنهم من يرقى ويرقى، فيكون بذلك جديرًا بأن يدخل في عداد الزمرة التي حازت على أعلى وأعظم المقامات عند الله.

إن معرفة الله وعبوديّته هي غاية الفطرة والهدف الوحيد من الخلق، وبينما تقتضي العبودية من جهةٍ بعضَ الأمور مثل الإنصات والشرح والتسليم والمعايشة وتوجيه كل أمور الحياة إلى العبودية فهي تهدف من ناحية أخرى إلى صفاء الأفكار والوصول بالإنسان إلى أفق التفكر في خالقه ليس إلا، ولذا فهي مهمّة ثقيلة، وبقدر هذا الثقل فهي جليلة مقدّسة.

يقول ربنا تبارك وتعالى في الآية الحادية والعشرين من سورة البقرة آمرًا بعبوديته: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٢١).

يعني اعبدوا ربكم، فهو من خلقكم وخلق الذين من قبلكم، بيده سبحانه الخلق والأمر، فهو من أوجدكم، وخلق فيكم في الوقت ذاته وسائل الخلق من عناصر وجُزَيئَات وجُسيمات، بمعنى أنه خلق ما قبل الخلق والذي تُطلقون عليه "الخلقَ الأول"، وبمعنى آخر: هو الذي خلق الذين من قبلكم.

هو من أهلك كثيرًا من الأمم، فلا قِبَلَ لكم أن تتصوّروا كيف أهلك أمثال فرعون والنمرود وشدّاد (أطغى حكام قوم عاد)، وهم الذين كانوا يسيرون في الأرض بتكبُّرٍ وتبختُرٍ.

ثم جعل روما المتغطرسة وبيزنطة واليونان -وحتى السلاجقة والعثمانيين من ناحية ما- أثرًا بعد عين بمحضِ إرادته ﷻ، وهو الذي خلق كل هؤلاء جميعًا كما خلقكم.

إذًا عليكم أن تعبدوا ذلك الخالق الذي أحاطت قوته بكل شيء، وأن تأخذوا الماضي والحاضر والمستقبل بعين الاعتبار وتجعلوا منه عبرةً وعظةً؛ حتى يتسنى لكم الدخول في دائرة التقوى، فإن فعلتم ذلك أحسنتم تقويمَ حياتكم، وكنتم أكثرَ الناسِ تقوًى وتوقيرًا لله، ووصلتم إلى الغاية السامية من حياتكم سيرًا على الصراط المستقيم.

هو الذي جعل لكم الأرض فراشًا، تجدون كلَّ ما تسألونه بجانبكم وبالقرب منكم، وكأنكم مرضى على هذا الفراش، وإنّ مالكَكم ومالكَ هذا العالم الذي ينفذُ حكمُهُ في كلِّ شيءٍ يحتفي بكم حفاوةَ ضيوفه الكرام.

أجل، لقد جُعلت لكم الأرض فراشًا، فلو أُصيبت بأيّ عطبٍ لوقعتم في حالةٍ يُرثى لها، ولضاقت عليكم الدنيا بما رحبت.

وهو الذي يسَّـرَ لكم كلَّ شـيءٍ، يأتيكم بالطعام، ويقلّبكم ذات اليمين وذات الشـمال على فرشـكم، فلو فكّرتم في هذه الآية وبحثتم عن حكمةِ التقلُّب يمنةً ويسـرةً في فرشكم ستجدون أن تلك الآية وكأنها قد سُطرت بالنجـوم على صفحة السـماء، وعرضـت على أنظاركم تشـاهدونها على فرشكم الوثيرة التي تستمتعون بالاسترواح عليها.

ثم جعل السماء سقفًا مرفوعًا، فهناك ارتباطٌ دائمٌ بين السماء والأرض، السـماء تبعث الضياء، فتشق البراعمُ وجهَ الأرض، وتتبخر المياه، وتصعد إلى السـماء، ثم تهطل مجدّدًا على هيئة أمطار، حتى الصواعق فيها منافع للنـاس، ولا يُجـري الميـاهَ التي تشـربونها من منابعهـا إلّا اللهُ، وهو الذي جعـل لكـم الأرض مهادًا، مهّدها ولم يتركها سـدًى، بـل حَفِظَ لها نقاءَها وصفاءهـا، فإن لم يجعل السـماء سـقفًا من فوقكم مـا كان هناك نقاءٌ ولا نظام، والعشب يبزغ في الربيـع ثمّ يصفرّ ويذبل في الخريف، ويجفّ كلّيّةً في الشتاء، فيتجدَّدُ به تراب الأرض ويقوى مرَّةً أُخرى.

ما أروعَ هذا الجانب الخاصّ بالنظافة في هذه العملية!، فعلى الأرض آلاف من الأشياء الرائعة من حيث النظافة فقط.

اعبـدوا ربَّكـم وتوجَّهوا إليه توجُّهًا يليقُ بقـدر توجُّهِهِ إليكم، فهو من توجَّه إليكم وأسبـغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً.

إن تأملتـم الأمـورَ جيدًا تُدرِكونَ الحِكَـمَ والمصالِحَ كيفَ تُحيطُ بكم وتهبُ لكم الأرزاق، تأملوا جيدًا فيما وهبه لكم من رزق مادي ومعنوي؛ رزقِ الإبصـار ورزقِ التـذوّق ورزق السـمع ورزق الهضـم، وحينـذاك تدركون جيّدًا أن كل هذه الأرزاق منه ﷻ.

وعندما يهبها لكم لا يحتاجُ إلى غيره، فعليكم إذًا أن تكونوا منصفين ولا تشركوا غيره معه في عبادتكم له، احموا أنفسكم من دَنَسِ الشِّرْك الخفيِّ والصريح والصغير والكبير.

كلّ هذه الأسباب عارضةٌ، وليس هناك وجود حقيقيٌّ لأيٍّ منها، فإن لم يكلفنا ربنا تبارك وتعالى بالأَخْذِ بالأسباب ما اضطرَرْنا إلى اللجوء إلى أيٍّ منها، وبما أن كلَّ شيءٍ في هذا العالم المفعم بالحِكَمِ متعلِّقٌ بالأسباب فنحن ننظر إليها على أنها شروط عادية فقط، أما النقطة الثابتة التي لا تتغير والتي نُركز عليها فهي يد القدرة الإلهية التي تقبض وحدها على جميع الأسباب، ولذا فإن عبوديتنا له وحده لا لغيره.

وأحيانًا لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على ذلك التوازن في حالة سروره وسعادته، لذا فلا بد من مراعاة النعم التي يهبها الله لنا، مع تَجَنُّبِ أيّ قولٍ أو فعلٍ يُشمّ منه رائحة الشرك بالله تعالى، أما الدقة التي لا بدّ من مراعاتها في هذا الأمر فتتناسبُ وتتوازنُ مع القرب من الله تعالى.

اعبدوا ربكم بما يليق بنعمة التلذُّذ باللذة المعنوية والذوق الروحاني الذي ينشأ في قلوبكم بمعرفة الله، ولا تتركوا قلوبكم عُرْضَةً لنشأةِ أيّ شعورٍ بالتوجّه إلى محرابٍ آخر، فإن حدثَ وشعرتم بِمَيلٍ هكذا فاستردّوا وعْيَكُم على الفور وقولوا: لا إله إلّا الله، فغاية حياتكم هي اقتران العبودية لله بهذا الشعور.

وكل مفهومٍ خدميٍّ يُفضي إلى تلك الغاية واجبٌ لا بدّ من الأخذ به، حتى إن حكمة إرسال الرسل تستند على حقيقة أداء هذه المهمّة.

إننا نحن المؤمنين أمام واجب مقدس وهو أن نكون وسيلةً لحب الله وتحبيبه إلى الآخرين، وتنوير القلوب بنور الإيمان، وإن الاشتغال بهذا

الواجب ودعمه لهو سباق في عمل الخير، فمن استطاع أن يُكمّل السباق في هذه الحلبة فهو مِن أعظم الناس في العالم فضلًا وخيرًا.

فلو أنَّ إنسانًا ينظرُ إلى المسألة من هذه الزاوية باهتمام وفُتِحَتْ له الأبواب التي تُفضي به إلى الرئاسة على مصراعيها أو عُرض عليه مقامٌ دنيوي رفيعٌ تشرئبُّ إليه أعناق الجميع وخُيِّرَ بين واحد من اثنين فلا ريب أنه سيؤثر هذه الوظيفة على غيرها؛ لأنه يعلم يقينًا أن هذه الوظيفة هي وظيفة الأنبياء والصديقين، ففي هذا الجانب سيدنا رسول الله ﷺ وساداتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وفي الجانب المقابل هناك غالبًا الظالمون والشدادون؛ وظيفتهم هي التجوّل مثل العقرب وبثُّ سموم الكذب والغِلِّ والحِقْدِ الكامنة في داخلهم جرّاءَ فقرهم وفاقتهم الروحيّة، بيدَ أن الأوليـن يتلألَؤون على الدوام بِهَالَاتِهِم النورانية مع أرباب النورِ الصالحين.

إننا نعيش في هذه الدنيا حياةً مجيئُنا إليها ليس بإرادتنا، وخروجُنا منها وفراقنا لها ليس بإرادتنا أيضًا، إلّا أننا يمكننا أن نُحوّل هذه الحياة إلى حياةٍ يرضى بها الله عنا بالتخلّي عن السلبية والترقي تدريجيًّا، وهذا يتأتّى بدايةً باستيعاب أركان الإيمان ومزجِها بأرواحِنا، وتحويل أفئدتنا بالمعرفة الإلهية إلى أقراص من العسل، والوصولِ بعد ذلك بالمسائل الإيمانية عن طريق العبادة إلى درجة عين اليقين، وبلوغِ مقامِ الإحسان، وتحويل أُسُسِ الأخلاق الحسنة إلى ملكات تندرجُ في ماهيّتنا، وفي النهاية نَقْلِ هذه المزايا التي حصلناها إلى الآخرين، وتنوير كل مكان وكل إنسان وكل مجالات الحياة بأنوار الإيمان.

لقد أصبح الإسلام غريبًا جدًّا على الرؤى والأفكار في وقتنا الحاضر سواء في تركيا أو في أي بلد إسلامي آخر، وبدا وكأنه منبوذٌ عن الحياة، ونابذَ العلمُ والتكنولوجيا الدينَ العداءَ، وخُدع الكثيرون، ومن ثم لا بدّ من معرفة المسائل الإسلامية والقرآنية والإيمانية معرفةً جيدةً.

أجل، إن من الصعوبة حلول هذه المعاني الإيمانية السامية في بعض القلوب، ولذا ينبغي عدم إرغام الآخرين على تقبُّل هذا الأمر الصعب والتعامل معهم رويدًا رويدًا؛ فإن العمل على أن تنير هذه المعاني القلوب جميعها يتطلّب بلا شكٍّ صبرًا بالغًا، ومنهجًا يقتضي تأنيًا لا يمكن أن يدركه أو يستوعبه أصحاب الفطرة المتسرعة، الأمر الذي يؤدّي في النهاية إلى تمزيق الحواجز بين العبادِ والمعبود ﷻ.

وحتى يتسنّى لنا أداء وظيفة الإرشاد بحقها لا بد من مراعاة بعض الخصائص التي سنحاول تقديمها موجزة الآن:

أولًا: لا بد من دراسة السُّبُلِ الموصلة إلى روح المخاطب، وهذا نمطٌ من أنماط التعامل الإنساني، ثم تطبيق المبادئ التي أمرنا بها ديننا مثل التهادي ودفع أي ضررٍ يقعُ على المخاطب، وبهذه السبل يجب التواصل معه.

ورغم أن وضع هذه المسألة في قوالب مُعيّنةٍ يفيدنا من حيث الأفكار والرؤى إلّا أنه من الملاحظ أن هذا الأمر يحمل بعض الأضرار إذا ما قيمناه من حيث تجمُّد جوهر هذه المسألة وروحِها.

من أجل ذلك نرى من المناسب أن نقول حفاظًا على مرونة المسألة: لا بدّ من اتخاذ كل السبل المشروعة لِلْوُلُوجِ إلى قلبِ المخاطَب، يعني

أنـه لا بـد للمخاطب الذي نحدثه عن ديننا أن يتقبل صداقتنا له أولًا، فهذا عامل مهم ولا غنًى عنه في تقبل المخاطب للأفكار التي سنطرحها عليه.

ثانيًـا: المعرفة الجيدة للمسـتوى الثقافي والعقائـدي لمخاطبنا، فمثلًا إن كان مـا نقـرؤه عليه من قرآن يـؤدّي به إلى الجفـول والفِرار منا وعدم التواصـل معنا فيما بعد فـلا بدّ من التوقُّفِ عن قراءة القرآن عليه في تلك الأثناء.

والحق أنني ذكرت مثال القرآن هنا تلميحًا إلى بعض الكتب الأخرى، فإن قراءة أي كتاب على من ليس عندهم أي اسـتعداد روحاني لهو خيانة خفيّةٌ لدعوة الإسلام وإن كان كلُّ سطرٍ من هذا الكتاب يفيض بالإلهامات التي تفتح الأرواح والقلوب.

إن الله ﷻ -عنـد إرسـاله الرزق للطفل حديـث الولادة- يُجري له من ثديِ أمِّه سـائلًا كالعصيدة يسـمى "اللبأ"، ثم يتحَوَّل ذلك الشـيء إلى لبنٍ حليـب، وكلّمـا كبرَ الطفلُ كلّما تغيَّرَ شـكلُ الغِذاءِ الـذي نقدّمه له، وهذا هـو قانون الفطرة الذي يسـري تمامًا على تربية الـروح وتغذيتها الروحية، إننـا مضطرّون إلى أن نُدَقِّقَ في كل جملةٍ وحرفٍ ونقطةٍ من الأشـياء التي أظهرها الله لنا في آياته التكوينية، ونوفِّق تصرفاتنا تبعًا لها.

وأحيانًـا لا يجـري هـذا التوفيقُ فيؤدّي ما نشـرحه في سـبيل التبليـغ والإرشـاد إلى ردِّ فعلٍ لدى المخاطبين، حتى إنكم إن وجدتم مناسبةً بعد ذلك وحدثتموهم بما كنتم تُحَدّثونهم قديمًا فلن يُجْدِيَ هذا الأمر شيئًا.

ولذا فمن الأهمية بمكان الوقوف على مسـتوى الإدراك والاستيعاب لـدى المخاطـب، ويلخِّـصُ "بديـع الزمـان" هذا الـكلام بالمثـلِ القائل:

"لا تُلقوا اللحمَ أمام الحصان ولا العشبَ أمام الأسد"[١]، وهذا يعني أن نعاملَ الناس على حسب احتياجاتهم.

ثالثًا: كسب ثقة المخاطب، ينبغي أن يَثِقَ المخاطب فيكم ويتعلّق قلبُهُ بكم حتى إن وازن بينكم وبين كل محبيه رجحت كفَّتُكُم؛ لأن علاقتكم به لله ليس إلّا، وبما أن حبَّكم له لله فسيعمل هذا الحبُّ تأثيرَه في قلبه، ويحل هذا الحب والاحترام لكم محلَّ الحبِّ القائم على القرابة، بل وسيرجحه لدرجة أن أعباءَ التكاليف التي يتحمّلها وهو معكم قد ترجح -لذةً ومتعةً- جانبَ القرابة، بل يجب أن يُصْبِحَ كلُّ أنواع المخاطر المحتمل حدوثها في سبيل الهدف الذي تقدمون على الموت في سبيله وكل صنوف المعاناة المتوقّع تجشُّمها في هذا السبيل أحبَّ إليه من راحة الحياة السابقة ودعتها، وهذا يمكن أن يحدث بمعرفته الجيدة لكم وثقته العالية بكم.

وإليكم هذا المثال الواقعي والمنظر المثير من عصر السعادة: كان عتبة بن الوليد من أغنى أغنياء مكة، ومن ألدِّ أعداء سيدنا رسول الله ﷺ، ولذلك يُقالُ له "أشقى القوم"، كان على رأس معظم الفتن، وكل الأماكن التي تجاهر بمعصية الله تبارك وتعالى، ورغم ذلك ينشأ في بيته رجلٌ سعيد الحظِّ والطالع؛ ابنه "حذيفة" ﷺ، لكن لا شبَهَ بين الابن وأبيه أبدًا، صحبَ النبيَّ ﷺ، وضرب بالعروض الدنيوية الساحرة التي قدمها له أبوه ليثنيه عن اتباعه لدين الإسلام عرضَ الحائط؛ حيث كان شده المعنوي في الذروة، وعقيدته وقناعته سليمةً بما تلقَّاه من دروس على يد المعلم والمرشد العظيم صلوات ربي وسلامه عليه، هل تذكرون ماذا قال سيد الكونين ﷺ

(١) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **اللمعات**، اللمعة السادسة والعشرون، الرجاء السادس عشر، ص ٣٦٨.

عندما عرض عليه هذا العرض، قال ﷺ: "**وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ**"(٢)، فلقد أحدث قوله هذا تأثيرًا في القلوب والضمائر، وتمكّن منها حتى كان هذا ديدن جميع الصحابة عند جوابهم على مثل هذا العرض، لقد نَفَذَ المُعَلِّمُ الأوَّلُ إلى قلوبهم وتبوَّأَ المكان الأعلى فيها حتى إن أغلى الناس لديهم كالأبوين والإخوة والأقرباء لا تكون لأحكامِهِم قيمةٌ مقارنةً بقيمة حكم رسول الله ﷺ، ولا يبقى عزيزًا إلّا هو ﷺ.

لم يتغيّر الشيء الكثير بالنسبة للمرشد والمخاطب، فجميع القضايا التي كانت تقع أمس بصورة مختلفة ما زالت تتكرّرُ اليوم ولو بصورة أخرى، إذًا لا بدّ أن يطبق المرشدون والمبلّغون سبيل رسول الله ﷺ في النفوذ إلى القلوب، وإلّا ستظلّ القضايا المطروحة معلقةً في الهواء ولن تحظى بحسن القبول.

هذه هي مسألة النفوذ إلى الأرواح، وعنوان استيطان القلوب، ولذا على كلٍّ منا أن يقول: إن لم يستطع سيدنا رسول الله ﷺ أن يحبّب نفسه إلى أصحابه لهذه الدرجة أكان من الممكن أن يتبعوه ويأتوا معه إلى بدر، والظروف جميعها كانت ضدهم، وفي الجبهة الأخرى آباؤهم وإخوانهم وأعمامهم وأبناؤهم الذين من أصلابهم؟ لقد انصاع المسلمون للأمر الذي جاءهم من المقام الأعلى، وعلِموا أنّ الموت في سبيل الحق هو فضلٌ من الله تعالى ومحضُ اختصاص.

وأحيانًا كان رسول الله ﷺ يخاطبهم وينبّهُهم، وينفث في أرواحهم أن يكون هو أحبّ الناس إليهم.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ١/٢٦٦.

فمثلًا تعامل رسول الله ﷺ بحزمٍ وجلال مع كعب بن مالك الذي تخلّف عن غزوة تبوك، وقال له: "**مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ**"، فَقال: بَلَى، إِنّي وَالله لَو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ الله، لَا وَالله، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلَا أَيسَرَ مِنّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**"[٣]، وهكذا عُفي عنه لصدق حديثه وثباته على باب الحق.

وهكذا لا بد للمرشد أن ينفذ ويَصِلَ إلى قلب المخاطب، ويجعله ينفّذ كل ما يطلبه منه، لكن عليه ألا ينسى ضرورة ألا يكون طلبه للمخاطب من أجل نفسه؛ لأن الذي يفعل ذلك هم الفراعنة والنماردة والشدَّادون وفقًا لما ورد في كتاب الله تعالى، أما الأنبياء فقد كانت كلُّ مطالبهم من أجل الحقّ تعالى وخدمة لأقوامهم، وهذه مسألة مهمّة لا بدَّ من مراعاتها حقًّا.

رابعًا: الإحاطة بالقضايا الإسلامية، فعلى الجميع ألا يتفلسف أو يُطنِبَ في ذِكْرِ ما يهوى، وألّا يهرفَ بما لا يَعرِف؛ لأن رسول الله ﷺ قال: "**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**"[٤].

ومن ثم علينا ونحن نحدِّث الناس عن أمر في الدعوة الإسلامية أن يكون حديثنا في إطار هذين المصدرين الأساسيين وأن نحيط علمًا بالموضوع الذي نتحدّث حوله.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، ٨٢؛ صحيح مسلم، التوبة، ٩.
(٤) موطأ الإمام مالك، ١٣٢٣/٥.

ولا بد ألا نميل في حديثنا إلى الجَدَلِ والإلزام، وأن تكون الأمور التي نحدِّث الآخرين بها أمورًا قد فهمناها واستوعبناها حتى يستطيع المخاطب أن يتلقَّاها ويستوعبها دون أدنى مشقّة، كما قال بديع الزمان سعيد النُّورسي: "إن العالم المرشد الحقيقي يَهَبُ للناس علمَه في سبيل الله دون انتظار عوضٍ أو أجرٍ ويصبح كالشاة لا الطير، فالشاة تُطعم بَهْمَتها لبنًا خالصًا، بينما الطير تُلقم فراخَها قيأها المليء باللُّعاب"(٥).

فعندما تنفذ هذه المعلومات إلى أرواح المخاطبين سرعان ما تتحوّل الأرواح إلى خليّة عسلٍ للعلم والمعرفة، وإلا فإن كانت هذه المعلومات مثل القيء فلا يُتَصوَّرُ ذلك.

لا ريب أن هذا يتطلَّب القراءَة والاستظهار وتوسيعَ دائرة الثقافة والمعرفة، من أجل هذا ينبغي لمن يقومون بوظيفة الإرشاد أن يُخَصِّصوا وقتًا معيّنًا للقراءة بصفة دائمة، فمن حُرم من ثقافة العصر لن يَمْلِك ما يقوله لمخاطبه، وبعبارة أخرى: فإن الإنسان السطحي في مستواه الثقافي لا يستطيع أن يروي ظمأ مخاطبه المشغول بإرشاده مدة طويلة، ولذا فعلى أي مرشد يتعامل مع مخاطبين في جميع المستويات أن يحيطَ علمًا بالموضوع الذي يُحَدِّثُ فيه مخاطبَهُ بالقدر الذي يروي ظمأه على الأقل، وعلى ذلك فإنني على قناعةٍ بأن من يتخلّف عن مواكبة عصره لن يملكَ ما يُقدِّمه لإنسان هذا العصر.

أجل، أُكَرِّرُ بإلحاحٍ مَرَّةً أخرى: إنّ مَنْ جعلوا الإرشاد بغيةَ حياتهم لا بد وأن يتزوّدوا بالعلم والمعرفة، لأنّ الداعية الفارغ ينزح من بئر معطّلة، علاوةً على ذلك فإن مثلَ هذه الطائفة من الناس تحاول جبرَ قصورِها

(٥) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الكلمات**، اللوامع، ص ٨٢٩.

في القضايا التي يُحدّثون الناس عنها باللجوء إلى الحِدَّةِ والعُنْفِ؛ الأمر الذي يجعل الحديث لا يحالِفُه القبول وإن كان عن مسألة منطقية يسهلُ فهمُها، وإنما يقع النفورُ كردِّ فعلٍ على أسلوب هؤلاء الذين تحدَّثنا عنهم آنفًا.

ندعو الله تبارك وتعالى أن يقوم النورانيّون في عهد النور بإنارة العالم وتوجيه الأنظار إلى منبعِ النور، وأن يتزوّدوا بالمعرفة في كلّ ساحات العلم، وأن يملؤوا حِجر كلّ طالب علمٍ يقف على بابهم بالجواهر المحمديّة ويروُوا ظمأه.

خامسًا: اقترانُ جميع الأعمال بالصدق والإخلاص، وأن تكون الغاية منها دائمًا هي مرضاة الله تبارك وتعالى، وأن تُهيَّأَ كلُّ الأعمال وفقًا لذلك، فإن كانت هذه الأعمال في مرضاة الله عملناها وراعيناها وإلّا فعلينا أن ندعها ونصرفها عنا، ولا نتسبَّبَ في خداع أحد.

فلقد اختزلَ النبيُّ ﷺ الجهادَ في سبيل الله بما كان في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

يعني: لو كان كفاحنا في سبيل إعلاء كلمة الله فهذا من أجل الله، وإلا فنحن نتراءى بأنفسنا بِخُطَبِنَا وكُتُبِنَا؛ وحينذاك ينعدم الإخلاص فنُحْرَمَ ثوابَ أعمالنا، فإن أصيبَ الإخلاصُ أو تخلّلَهُ شيءٌ فلا حديث إذًا عن رضا الله أو النفوذ في قلوب الناس.

وقد اضطلع الأسبقون بالقيام بهذا العمل بإخلاص، حتى إنهم إن حدَّثْتهم أنفسهم بِعُذُوبَةِ منطِقِهِم وبلاغةِ حديثهم كانوا يجثون على ركبهم ويقولون: اللهم ارزقنا الإخلاص في كل أمرنا وفي كلّ شأننا،

ومنهم على سبيل المثال عمر بن عبد العزيز ﷺ، فلقد كان -حينما يرى خطابَهُ بليغًا للغاية- يمزّقه ويطرحه أرضًا خوفًا أن يداخله الكبر والغرور، ثم يَكْتُبُ خطابًا آخر.

وهكذا كانت تُشرح القضايا الإسلامية في تلك الفترة في مثلِ هذا الجوّ من الإخلاص المحضِ، وكأنَّ هؤلاء جعلوا مبدأهم الحديث عن ربّهم في جوٍّ لا ترغبه أنفسهم، ولربما قالوا: ما دامت النفس لا تأخذ حظّها من مثل هذا الحديث فهذا يعني أن هناك إخلاصًا في العمل، واتخذوا من هذا دستورًا لحياتهم.

ولعلّ قراءنا الأعزاء لهذه السطور قد مرُّوا بتجارب كثيرة من مثل هذا النوع، ولذا أعود فأكرّر بأن الإخلاص والصدق هو حياةُ القضايا التي نشرحها وروحُها، فإذا أردنا ألا تشهد علينا أقوالُنا وأعمالُنا فعلينا أن نتحلّى بالإخلاص.

سادسًا: على المبلِّغ أو المرشِد أيًّا كان مستواه أن يزوِّد قلبَه بالعلوم الدينية وعقلَهُ بالمعارف الحديثة، وأن يتعمق في مراقبته الداخلية بتشغيل قابلياته واستعداداته التي لا تعمل إلا بِكِلا الأمرين معًا، ولا بد للمبلغ والمرشد أيضًا أن يكون لديّيًا بقدر ما استطاع في هذه المسألة وفقًا لمستواه وشخصيته، وهذا أيضًا مرتبط -من ناحية- بالموضوع الذي تطرقنا إليه آنفًا، يعني لا بدّ من توسيعِ دائرة الإخلاص والصدق.

ولقد رَكَّزَ رسول الله ﷺ في كثيرٍ من أحاديثه على الإخلاص، وبين أنه أعلى أفقٍ بالنسبة للإنسان.

وعندما يتحدَّث القرآن الكريم عن كثير من الأنبياء يتحدَّثُ عنهم من خلال هذه الصفات، ويُبَيِّنُ أن الإخلاصَ جزءٌ لا ينفكُّ عن النبوّة.

ولقد وصفَ القرآن العظيم سيدَنا موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ (سورة مَرْيَمَ: ١٩/٥١)، معبرًا بأوجز الأساليب عن أن موسى عليه السلام ما كان يسلك سلوكًا أو يعمل عملًا إلا من أجل رضا الله تبارك وتعالى، وهذه العبارة تلقِّن المؤمنين درسًا في الإخلاص.

فلقد تربَّع سيدنا إبراهيم عليه السلام على قِمَّةِ مفهوم الإخلاص والوعي به، فلم يتزعزع أو يساوره الشكُّ لحظةً حتى في أحلَكِ الأوقات التي تجري فيها الأمور في غير صالحه، بل لقد رفضَ عرضًا مشروعًا من الملائكة كإعانتهم له وقال: "علمك بحالي يغنيني عن سؤالي"، ورد عرض الإعانة الذي قدمته له الملائكة بقوله: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وعلى ذلك فإن رضا الله من الأهمية بمكان، فلم يكن بوسعه أن يلقي بظلال طلباته المشروعة على هذا الأمر؛ لأنه يوصف بأنه خليل الله، والخليلية تتطلّب هذا.

فلا يعرف الجوهر إلا من يعلم قيمتَه! وبما أن الإخلاص والصدقَ وصفٌ نبويٌّ فلا بدّ أن يتحلّى بها كلُّ إنسان يتَّخذ من الدعوة وظيفةً وواجبًا، والقرآن الكريم يصف كل الأنبياء بالإخلاص، ويُخبرنا بأن الحقّ ﷻ قد أمر نبينا ﷺ بالإخلاص، وإنني على قناعةٍ بأنّنا إذا ما دخلنا إلى القرآن الكريم من هذا الباب فسنجدُ من المنافعِ الجمَّ الكثيرَ.

أجل، على من يقومون بوظيفة الإرشاد والتبليغ بدلًا من الاهتمام بأمور تافهة مثل: إرغام الآخرين على قبولهم، والاعتقاد بالتأثير فيهم، وامتداحهم بكثرة أتباعهم؛ أن يحاسِبوا أنفسهم على أقوالهم وأفعالهم هل هي تتوافق مع رضا الله ﷻ أو لا، فالمراقبة تعني محاسبة الإنسان لنفسه بنفسه، وهي ركيزةٌ من ركائز عملية الإرشاد والتبليغ.

على الإنسان أن يُراقب نفسَه متسائلًا: لماذا أفعل ما أفعله؟ فإنْ دَاخلَ هذه المسألةَ شيءٌ من هوى النفس والأنانية فعلى الإنسان أن يتوقّف على الفور.

لنفتَرِضْ مثلًا: أنك تجلس في مكان ما مع جماعة من الناس تقرأ لهم كتابًا نورانيًّا، فهذا الفعل في حدِّ ذاتِهِ حسنٌ وجميلٌ، ولكن إن انتبهتَ قليلًا ستجدُ أنَّ أمرَ القراءة قد سيطر عليك أكثر من المسائل التي يحملها هذا الكتاب، وستدرك أن القراءة هي التي تجذبك وتروق لك ليس إلا، ومن ثَمَّ ينبغي لك حينذاك أن تتوقّف عن القراءة أو تغلقَ الكتابَ أو تعطيه لغيرك ليقرأ بدلًا منك.

أو لِنَقُلْ مثلًا إنك تعمل واعظًا، تعظ الناس، ونِلْت بفضل الله وكرمه مقامَ البسط حتى إن الكلمات تنساب منك تلقائيًّا وكأنك تحرك شفتيك فقط، فعليك إذًا في هذه اللحظة أن تنتبه إلى من أنطق لسانك، وتُفكِّر في صاحب هذا الفضل، وتُنكّس رأسك إلى الأرض إذعانًا له، فإن حدث ودَاخلَك شيءٌ من هوى النفس، واعتقدتَ أنت أيضًا بهذا؛ فلا بد إذًا أن تقطع حديثك وتنزل عن المنبر على الفور، فحسن الكلام أحيانًا ما يكون فتنة، وعلى الإنسان أن يستعيذ بالله دائمًا من الفتنة، كم من خطباء جاؤوا إلى الدنيا وساقوا الناس وراءهم وربما هم الآن -باستثناء المخلصين بالطبع- يحاسَبُون على كلامهم في الآخرة.

ولنضرب هنا مثالًا واقعيًّا: لنقل مثلًا إننا نقرأ كلّ يومٍ وردًا قرآنيًّا بلا انقطاع، وننزعج إذا لم نتمكن من قراءته، إن شئتم فأطلقوا على هذه المسألة عادةً أو إلفًا، ومن المفترض أن هناك جماعةً تنتظرنا لنلقي عليها الدرس، ولم نكد نقرأ بضع آيات من وردنا القرآني حتى يخيل لنا

أننا ربما نقرأ هذه الآيات حتى نجمّلَ وندرّبَ أصواتنا قبل الخروج إلى الدرس، فنقع في جفول وذهول، رغم أن هذا هو وردنا القرآني كلّ يوم، ولكن يساورنا القلق في الاستمرار في القراءة من عدمه، خشيةَ موافقة التلاوةِ غايات أخرى سوى رضا الله ﷻ، ونبتهل إلى الله قائلين: اللهم إني شرعت في القراءة من أجلك وأتركها الآن من أجلك أيضًا، ثم نغلق المصحف ونقوم.

أجل، إننا مضطرون إلى أن نهيّئ أنفسنا بالمراقبة الداخلية وفقًا لما ينبعث من أعماق قلوبنا وإلا تعذر علينا أن نؤثّر فيما حولنا.

علينا أن نمحو ذاتيتنا وأن نتنازع مع أنفسنا في قرارة أنفسنا، وأن نتحرى رضا الله في هذا النزاع، وأن نسعى في سبيل رضاه ﷻ.

ولمثل هذه الحالة الروحية مظاهر تبدو وكأنها غريبة بعض الشيء أحيانًا، فقد يهزّ الإنسان رأسه أو ينكّسها أو يئن ويكابد أو يسجد ويتلّوى، ولكن لا ريب أن الإخلاص سيصبح سلوكًا اعتياديًّا مع الوقت في كل تصرفاته، ويفعل الإنسان كل ما يفعله في غاية السهولة براحة واطمئنان من أجل الله، ويدعه من أجل الله، ويجلس ويقوم من أجل الله.

علينا أن نبتهلَ إلى الحقّ تبارك وتعالى على الدوام أن يرفع قدرنا بالصدق والإخلاص وفقًا لعجزنا وفقرنا لا لأهليَّتِنا.

سابعًا: إن كان شرحُنا لمسألةٍ سيُزعِجُ طائفةً من الناس فعلينا أن نحيل شرح هذه المسألة إلى الآخرين قائلين: "رضا الله أولى فالحقُّ يعلو ولا يُعلى عليه"، وليس كذلك فقط بل لا بد أن نستحسن شرح الآخرين للمسألة.

وهنا نُكتَةٌ لطيفة لا بد من الانتباه إليها: وهي التفريقُ بين الرضا بشرح الآخرين للمسألة وبين استحسان هذا الشرح، وعلى ذلك فعلينا أن نستحسن هذا الأمر وفقًا للجانب الثاني، وهذا من الأمور التي لا تحبّذها النفس مطلقًا، رغم أنها شجاعةٌ وإحسان.

قد ينزعج بعضُ الناس منّا لأمرٍ يتعلَّق بنا، وقد يُحدث ما نشرحه تأثيرًا سلبيًّا فيهم، وفي هذا الوضع لا يختلف همُّنا وسعيُنا لشرح الحقّ والحقيقة عن سعينا لعدم تقبُّلهم ما نحدثهم به، وبناءً على ذلك يتضرَّر السامع لعدم تقبُّله الحقَّ، ونُلحق نحن أيضًا الضررَ بأنفسنا لأننا أصبحْنا حائلًا بين هؤلاء وبين تقبُّلهم للحقّ، والحلُّ هنا يكمن في أن يشرحَ المسألةَ شخصٌ غيرنا، وسنحظى أيضًا بالثواب نفسه الذي حصله الآخر في سبيل تقبُّل السامعين للحقِّ لأننا كنا وسيلة فيه.

علينا ألا نُرَحِّبَ بطلب التحدُّثِ وإلقاء الكلِمات، كما لم يرحب النبي ﷺ بطلب الإمارة من أبي ذرٍّ ﷺ، بل كان يعهد بها -بِحُكْمِ صلاحيّاته- إلى أهل اللياقة والخبرة.

ومن ثَمَّ فإن كان هناك شخصٌ بوسعه أن ينفذ إلى قلوب الناس أكثر منا، ويشرح قضية ما على نحو أفضل منا؛ فعلينا أن نهيّئ له الفرصة للحديث، وعلى الآخرين ألا ينزعجوا من وجودهم بين المستمعين.

ثامنًا: علينا أن نعترف -بارتياح- بعدم المعرفة إذا ما صادفتنا مسائل لا نعرفها، وأن نقول: لا نعلَم، فكما قالوا "نصفُ العِلمِ لا أعلم".

ولقد ضرب لنا مرشدنا ونبينا وسيدنا محمد ﷺ أروع الأمثلة في هذا الموضوع.

ذات يوم سأله اليهود عن الروح، فسكت النبي ﷺ ولم يجب على هذا الموضوع الذي لم يطّلعْ عليه بعدُ رغم ما هو عليه من مكانة جليلة.

أجل، لم يُجب النبي ﷺ على هذا السؤال العدائي الذي طرحه الخصوم الذين حاولوا إثارة الشبهات والشكوك حول نبوته، وبعد مدة نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ (سورة الإسْرَاء: ١٧/٨٥).

فكان لسكوت النبي ﷺ وتبليغِه هذه الآية بعدما نزل عليه الوحي التأثير الأبلغ في نفس المخاطبين، فكمّموا أفواههم بعد تلقّيهم هذا الجواب الدامغ.

وما كان تفضيلي لهذه الآية إلا لطرح مثال واقعي عليكم، وليس للحديث عن الروح، يعني أنه لم يقل: "أعرف" على كل مسألة عُرضت عليه، ويا له من درس عظيم لنا لو نتعلّم! ولما نزل عليه جبريل عليه السلام يومًا وقال: متى الساعة؟ ماذا كان رد النبي ﷺ وكيف كان؟ قال صلوات ربي وسلامه عليه: "**مَا المَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ!**"، فهل هناك أبلغ من هذا المثال الذي يوضح أننا لسنا مضطرين إلى الإجابة على كل سؤال.

كانوا يسألون الإمام أبا يوسف مائة سؤال، فلا يجيب على ستين منها ويقول: لا أعلم، فقالوا له: يا إمام، ندفع لك راتبًا، وتقول لا أعلم على ستين سؤالًا؟ فقال الإمام أبو يوسف: إنكم تدفعون لي راتبًا على ما أعلمه، فإن لزم أن تدفعوا شيئًا على ما لا أعلم لما كفتكم الدنيا كلها.

كان الإمام أبو يوسف يتربع على عرش الفتوى حينذاك حتى كان يلقب بـ"قاضي القضاة"، ورغم ذلك يقول: لا أعلم.

ونُقِل عن الإمام مالك أنه سُئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: "لا أدري".

كذلك أبو حنيفة سُئِلَ عن تسع مسائل فقال فيها: "لا أدري".

فمثل هذه النماذج توضّح أن هذه القامات العظيمة شرفًا وكرمًا ما كانت تجيب على كل سؤال يُطرح عليها.

فعلينا أيضًا أن نعترف بعدم معرفتنا إزاء ما لا نعرفه، ولكن لا نترك المسألة هكذا؛ بل نصحب مخاطبينا إلى من نرى أنهم أفضل منا في معرفة القضايا المطروحة، ونتعلم، ونهيّئ الفرصة لغيرنا حتى يتعلموا.

تاسعًا: ينبغي لرجل الإرشاد والتبليغ أن يكون جوادًا كريمًا، وأن يضحّي بما يملكه في سبيل دعوته، وأن يتخذ من جُودِهِ بُراقًا لفتح القلوب.

وعندما أتكلم عن الجود والسخاء لا أتمالك مشاعري وأتذكر على الفور أمنا السيدة خديجة ﵂.

ولدت السيدة خديجة ﵂ قبل النبي ﷺ بِسَنَهات عدة ورحلت عنه أيضًا قبل رحيله بِسَنَهات عِدّة، ولعل هذا التبكيرَ مشتقٌّ من اسمها؛ فإن خديجة تعني: المولودة قبل أوانها، عندما تعرفتْ بالنبي ﷺ لم يكن ﷺ يملك من حطام الدنيا شيئًا، أما السيدة خديجة ﵂ فكانت ثريةً في المالِ، درّةً في الجمال، حسيبةَ النسبِ طيّبةَ الخِلالِ، ورغم هذا فقد حدسَتْ المعنى الكبير الذي يحمله هذا النبي الكريم، وعرضت عليه الزواج، وتزوّجا فعلًا.

ولقد جهَّزت كثيرًا من القوافل التجارية، وكانت صاحبةَ الكلمة فيها، وأنجبت للنبي ﷺ عددًا من الأولاد، ثم ارتحلت دون أن تُدرك عهدَ

المدينة، وهذا أيضًا من الأمور التي تؤثّر في نفسي تاثيرًا بالغًا، فعندما أتذكّر هذا الموقف لا أتمالك نفسي وأجهشُ بالبكاء.

كانت هذه السيدة العظيمة -التي وكأنّها ما خُلِقَتْ إلا لتصبح زوجةً لنبيّ- سخِيّةً كريمةً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فلما بدأ رسول الله ﷺ في تبليغِ رسالَتِهِ صدّقَتْهُ وآمنت به دون تردُّدٍ وكأنها كانت تعلم مسبقًا أن زوجها سيُعهد إليه بمثل هذه المهمة، ثم وضعت كلَّ ثروتها تحت تصرُّفه ﷺ، فأنفقتها كلها في سبيل الله، ولم يبق منها شيء وقت المقاطعة الاقتصادية التي ضربها الكفار على المسلمين في شِعبِ أبي طالب، حتى إن النبي ﷺ كاد يُغمى عليه من شِدّةِ الجوع، ولم يجد ما يأكله ﷺ؛ حتى ولو من الخبز الجافِّ، ولَزِمَتْ السيدة خديجة الفراشَ، ولم يستطيعوا توفيرَ العلاج لها بسبب ما حلّ بهم من بؤسٍ وفقرٍ، ورحلت ﵂ إلى الرفيق الأعلى فقيرةً مسكينةً، وآخر أفق في الجود والسخاء أن يجود الإنسان بنفسه، ولقد وصلت أمُّنا السيدة العظيمة خديجة ﵂ -التي نفديها بكلّ أمّهاتنا- قبلَ الجميع إلى ذلك الأفُقِ.

وكان سيدنا أبو بكر الصدّيق ﵁ يُلهي أباه بحصَوات من الحجارة يضعها في جرّته؛ ليوهِمَهُ بأنها مالٌ ومتاعٌ، ويُنفِقُ كلَّ ماله في سبيل الله، حتى إنه افتقَرَ بعد تولّيه الخلافة، لدرجة أنه اضطر أن يكسبَ عيشه بكدِّ يمينه وعَرَقِ جبينه، وحَلْبِ شياهِ الآخرين، لقد ضرب مثالًا رائعًا في الجود والكرم وضحى بكلّ ماله في سبيل الحقّ، مع أنه صاحَب رسول الله ﷺ في الغار والهجرةِ، وكانَ سيدَ الصديقين، وواحدًا من أغنى أغنياءِ مكّة قبل الإسلام.

وكان سيدنا عمر الفاروق ﷺ يتعيّشُ على بضعِ تَمَرَاتٍ كأفقر رجل في المدينة المنورة؛ يعني كان فقيرًا من الناحية المادية.

وكأنَّ كلَّ الصحابة كانوا يتنافسون فيما بينهم في هذا الموضوع، فلقد فتحوا القلوبَ والأفئدةَ بما قدَّموه من سخاء وَجودٍ في سبيل الله، فكان يتوالى دخولُ الناس في دين الله أفواجًا؛ لأنهم درسوا هذا الموضوع ككلِّ الموضوعات الأخرى على يد رسول الله ﷺ، قال أنس بن مالك ﷺ: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسلِمُ ما يُرِيدُ إِلا الدنيا، فَمَا يسلمُ حَتى يَكُونَ الإِسلامُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنَ الدنيا وَمَا عَليهَا"، وروى أن رجلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَينِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَومَهُ فَقَالَ: "أَي قَومِ أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْر"(٦).

ومن ثم على كل مرشد ومبلغ شابًّا كان أو شيخًا أن يسعى إلى فتحِ القلوب بهذه المفاتيح والوسائل، فمن أنفق ماله في سبيل الله، وكان وسيلةً لهداية شخص إلى الإسلام؛ كسب شيئًا كثيرًا، وما ضيّع شيئًا ألبتة.

سيَفتح بابَ الجنة الكرماءُ، فافتحوا أنتم أيضًا السبل التي توصِلُ إلى هذا الباب في الدنيا وخذوا بأيدي الكثيرين معكم إليه، وبهذا السلوك فإن من يتعاملون معكم سيصلون إلى مستوى يؤثرون معه الله ورسوله على كل ما سواهما.

أجل، ليس العلماء والوعّاظُ والمشايخ هم أول من يدخلون الجنة، بل هؤلاء الكرماء من تُجَّار وحِرفيين أيًّا كان مستوى دخلهم، لأنهم بذلوا مالهم وأرواحهم في سبيل الله ونَشْرِ الحقِّ والحقيقة.

(٦) صحيح مسلم، الفضائل، ٥٧، ٥٩.

أجل، إن هؤلاء تقرَّبوا إلى ربِّهم بإنفاقِ أشياءَ فانية، فكسبوا أشياءَ باقيةً، فكتب لهم الخلود.

عاشرًا: أريد هنا أن أنوِّه إلى نقطة لها شيء من الخاصية، ألا وهي: أننا نرى الآن بوضوحٍ مشهدًا كان يتعذّر علينا أن نراه قبل خمسة عشر أو عشرين عامًا حتى في أحلامنا، وهذا من فضل الله اللامتناهي علينا.

إننا قد تجاوزنا حتى في العالم الإسلامي تلك الفترة التي يحتاج فيها الدعاة والمرشدون شهورًا لتحديث الناس بالحق والحقيقة. أجل، إنني وأمثالي ما زلنا نذكر تلك الأيام التي كنا إن سمعنا فيها أو رأينا طالبًا جامعيًّا يصلي تأثَّرْنا للغاية وسُرِرْنا سرورًا بالغًا وكأننا تقابَلْنا مع الخضر أو جبرائيل عليهما السلام.

كانت تلك الأرواح التي تذوَّقت حلاوةَ الإيمان تركضُ هنا وهناك، وتجري شهورًا أحيانًا وراءَ إنسان لا حظَّ له من الإيمان؛ حتى تطرح عليه تلك الرسائل النورانية التي تملأ عوالمهم الداخلية، ولكن دون نتيجة إيجابية قطّ، بيد أن الوضع الآن قد تغيّر، وأصبحَ من يتبنّى مثل هذه المسائل الجماعاتُ وليس الأفرادُ، إننا قد أدركنا عصرًا لانَتْ فيه حتى قلوب أكثر الناس تمرُّدًا فأخذوا ينظرون إلى القضايا الإسلامية على أنها محتملة الحدوث، ومن ثم فإن الوظيفة الملقاة على عاتقنا حاليًّا هي استغلال المناهج وتجريب الأساليب الجديدة شريطة عدم الابتعاد عن جوهر الإرشاد وروحه، وإلا فلا ريب أننا سنُصاب بما أُصِيبَ به هؤلاء الذين ضيّعوا كلَّ أعمالِهم لعدم استيعابهم لعصرهم ومواكبتِهم له، نستعيذ بالله من التردّي إلى هذا الوضع، إذًا نحنُ مضطرّون إلى أن نواكبَ كلَّ ما هو حديث من أجل أداءِ وظيفة الإرشاد أداءً تامًّا يتوافقُ مع متطلبات هذا العصر، ويجب ألا ننسى أننا بِقَدْرِ تأخُّرنا في مواكبة عصرنا بقَدْرِ ما سنتأخّر في الوصول إلى غدٍ سعيدٍ.

وانطلاقًا من هذه النقطة يمكننا أن نصل إلى قاعدة عامّة وصالحةٍ للجميع؛ وهي أنه يجب على من يقومون بوظيفة الإرشاد والتبليغ أن يستوعبوا عصرهم ويوطِّنوا إرشادهم على هذا الأساس، وبدهي أنه لا سبيل إلى التوصل لأيّ نتيجةٍ مُجديةٍ ومُرضيةٍ من خلال جرّ الناس إلى دهاليز مظلمة في فترةٍ انفتح فيها الآخرون على الفضاء.

الحادي عشر: من الخصائص المهمّة جدًّا في عملية الإرشاد والتبليغ تطبيقُ الأصول والمناهج التي تيسّر عودة الجموع الضالّة إلى أصولها عن طريق الاستفادة من الحالة الروحية للجماعة.

وإن مراعاة بعض القضايا التي عجزتم عن تقبل الآخرين لها رغم تحديثكم لهم بها سنين عددًا، وسبرَ أغوار بعض هذه المسائل، ونقلَ العشق والانفعال الراسخ في القلوب المؤمنة إلى الآخرين له من الآثار العظيمة ما له؛ وليس الخبر كالعيان.

وعلى ذلك فإن عرضَ القضايا الإسلامية على من حولنا دون اللجوء إلى أي تمييز، وفي جوٍّ بعيدٍ عن مفهوم الحزبية الذي يقفُ سدًّا منيعًا دون استمرار الدعوة يؤثّر أحيانًا في مخاطبينا وبالتالي في تقوية قوتهم المعنوية حتى إنهم يجتازون على وجه السرعة ذلك الفراغ الذي كانوا يعيشونه لسنوات عدة، بل ويتكاتفون ويقفون معكم على خطٍّ واحدٍ، يمكننا أن نفكر في هذا بالنسبة للجماعات، ولقد أصبحت اليوم المؤسسات التعليمية الخيرية التي أنشأها رجال الخير تسير على رسم بياني يرتقي ليرسم البسمةَ على وجه الأصدقاءِ ويُذكيَ الضيقَ والجنون في صدور الأعداء، فللَّه الحمد والمنّة على إحسانه علينا بهذا الفضل الكبير، وندعوه ﷻ أن يجعل ما تحدثنا به من باب التحديث بالنعمة! آمين.

الهمُّ الأوحدُ للنبيِّ محمّد ﷺ

سؤال: هل يمكن أن تحدِّثَنا عن جهود ومساعي النبي ﷺ والمسلمين الأوائل الرامية لإنقاذ إيمان غيرهم؟

الجواب: هذا الموضوع من الموضوعات التي لا بدّ من الحديث عنها على أنها موضوعٌ مستقلٌّ تمامًا، وقد حاولت من قبل أن أعرض وجهة الصحابة خصّيصًا فيما يتعلق بهذا الموضوع.

في الواقع إنّ ضربَ مثال أو اثنين لهؤلاء الصحابة في كل مجلس أو حديث أو مقال يَهَبُ روحًا وحياةً له، فالصحابة بالنسبة لي مقياس ومعيار، وأنا أضع كل أحكامي في قالَبِ التشبه بهم... وإنّني لأنظر إلى الصحابة الكرام على أنّهم شرطة المرور الموظّفون على طريق النور، وأوقنُ بأنّ علاماتهم وإشاراتهم هي التي توصِّل إلى باب النور الخالد والأكبر النبيِّ محمّد ﷺ، ولقد جعلت هذه الفكرة غاية حياتي قدرَ الإمكان.

وإن كان لا بدّ وأن نُخضع المؤمنين لتصنيفٍ ما فإنني أجعل القرب من هؤلاء الصحابة والبعد عنهم معيارًا لذلك، وقد أشرت على أصدقائي وأحبائي المقربين بوضع تصنيفٍ كهذا.

ولقد شُرح هذا الموضوع مرارًا وتكرارًا، وربما تشرّبته أرواح قرّاء هذه السطور، ووصلوا في تعرفهم على الصحابة إلى أقصى الدرجات.

ومع التسليم بهذا إلا أنني سأحاول أن أنوّه هنا ببعض الأمور تبرّكًا إجابةً على هذا السؤال:

لم تكدْ المشاعر الدينية تلتهب في روح رسول الله ﷺ وأرواح صحابة رسول الله حتى جعلوا هدفهم وغاية حياتهم نقل القضايا الدينية إلى الآخرين، وتمثل الدين، والأخذ بأيدي الناس بهذه الوسيلة إلى الخلاص الحقيقي.

إن لم تكن هناك خدمة للدين فلا معنى أيضًا للبقاء على قيد الحياة، وكما أوضح القرآن الكريم علينا أن نقيّم نحن المؤمنين -خلفاءَ الله على الأرض- الأحداثَ كلَّها من منظور الفكرِ والشعور الديني.

فلو أن الماء ينحدِرُ إلى أسفل وأمَرَنا ديننُا بأن يجري الماء إلى أعلى صُعودًا، فنحن مكلفون بالعمل الدؤوبِ حتى يتحقق ما أمر به الدين، وهكذا فلو أدركنا ما نحن مكلفون به لأصبحت هناك حكمة لوجودنا ومعنى لحياتنا، وإلا كانت حياتنا فارغةً ووجودنا عبثًا.

لقد بلغ هذا الشعور وذلك الفكر أقصى درجة له عند رسول الله ﷺ، وسردَ لنا القرآن الكريم في كثير من المواضع الآيات التي تبدأ بقوله: "**فَلَعَلَّكَ**"؛ حتى ينبهه، ويوجّه أنظارنا نحن أيضًا إلى قامته العالية السامقة... ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (سورة الْكَهْف: ٦/١٨)؛ يعني أوشكتَ أن تُهلك نفسك وتُتلِفها... تنهض في الصباح فتشاهد الوجوه غير المؤمنة، وعند رُقادِك تتمثل أمامك أخيلتهم،

وبهذا الشعور ينقصم ظهرُك همًّا وحُزنًا على قدرِ معرفتك بالناس؛ فتنسى حياتك وتوشك على هلاك نفسك.

أجل، لقد كان يَئِنُّ دون توقُّفٍ لأنهم لا ينصتون لكلماته القدسيّة، ولا يتبعون دعوته الإلهية، ولا ينخرطون في هالتِهِ النورانيّة، كان يتلوّى حزنًا عليهم لأنهم لم يؤمنوا ولم يدخلوا في حظيرته القدسيّة، حتى كاد أن يذوب ويتلاشى مثل الشمعة.

ومن المعاني التي تتضمّنها هذه الآيات: دع الأمر للقدر، وفوِّض الأمر إلى القادر ﷻ، ومن إتلاف نفسِكَ حاذر، كما تشتمل هذه الآيات على مديح علويّ للنبيّ ﷺ، وكأنّ الله تعالى يقولُ لنبيّه: أيّها النبيّ إن روحَك عالية، وستصبح هذه الروح في المستقبل منهلًا يُهرول إليه الجميع بأقداحهم ليغترفوا منه ويروُوا ظمأهم... فلا تُزلزل عالَمك الفكريّ إلى هذا الحدّ، ولا تهلك نفسك في سبيل هذه الوظيفة العظيمة التي ستؤتي ثمارها في المستقبل، فوجودُك ضروريٌّ، وما عليك إلا أن تؤدّي وظيفتك، ولا تتدخّل فيما تقتضيه الربوبية.

وما أكثر المعاني التي تعجّ بها الآيات مدحًا وثناءً على رسول الله ﷺ والتي لا يستطيع إدراكها إلا هو صلوات ربي وسلامه عليه!

ومما نستخلصه من هذا الثناء في الآية السابقة أن جميع الآلام والأحزان التي كابَدَهَا نبيُّنا ﷺ ما كان سببها إلا تبليغ الحقائق العظيمة التي جاء بها، وكأنه ﷺ كان مشحونًا بهذا الهمّ على الدوام كسحابة محمّلةٍ بالمطر، فلم تكن هناك مسألة أخرى تشغل باله سوى هذه الدعوة العظيمة؛ لذا تجِدُهُ وكأنه لا يعلم بما يُمارَس ضدّه من أذًى واضطهاد، وكثيرًا ما كان يسأل أصحابه الأوفياء عمّا يجري حوله، فإذا ما سمع نحيبَهم وقف مدّةً يسيرة عند المسألة ليسرّي عنهم ويسلّيهم ثم يمضي مسرعًا.

لقد أُلقي الأذى على ذلك الوجه الشريف الذي لا تقوى الملائكة على استدامة النظرِ إليه خجلًا، ووُضع سلا الجزور على ذلك الرأس الشريف الذي طوّفَ بالملإ الأعلى، ونُثر الشوك تحت قدميه المباركتين اللتين لو اكتحلَتْ عيناي بالغبار الذي وطِئَتْهُمَا لكنت أسعد الناس حظًّا، ورُمي بالحجارة حتى سال الدم من قدميه المباركتين ﷺ (ولَكَمْ صَرَخَتْ الملائكة حتى ضجّت السماء إزاء كلّ حجرٍ يلامس قدمه الشريفة ﷺ!)، كلّ هذا يحدث وكأنه ﷺ لا عِلمَ له بما يجري أو يحصل.

أضف إلى ذلك أنه عندما سمعَ شهيق عمر ﷺ بالبكاء قال له ﷺ: لِمَ تبكي يا عمر؟ ولمّا رأى أبا هريرة ﷺ وقد انحنى باكيًا قال له ﷺ: ما الذي يُبكيك يا أبا هريرة؟ ولما خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ يومًا تَلَقَّتْهُ فَاطِمَةُ عِنْدَ بَابِ البَيتِ وَعَينَاهَا تَبْكِي، فَقَالَ لَهَا: "يَا بُنَيَّةُ مَا يُبْكِيكِ؟" قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا أَرَاكَ شَعِثًا نَصِبًا قَدِ اخْلَولَقَتْ ثِيَابُكَ، فَقَالَ: "**فَلَا تَبْكِي، فَإِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَ أَبَاكِ لِأَمْرٍ لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرضِ بَيتُ مَدَرٍ، وَلَا شَعرٍ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ بِهِ عِزًّا أَو ذُلًّا حَتَّى يَبْلُغَ حَيثُ بَلَغَ اللَّيلُ**"(٧).

أجل، ما ضيّعَ الله نبيه، لقد عاش ﷺ إلى يومنا هذا وسيظلّ فيما بعدُ في قلب كلّ من آمنَ به كوردةٍ أو زهرةٍ من الجنّة، ولقد كان الصحابة ﷺ على نفسِ الشاكلة.

إن الصحابة هم الجماعة الوحيدة التي أجمع عليها كل من على ظهر الأرض بمختلف شرائحهم، واتخذوهم مرشدين وروّادًا لهم، ونحن خدام الباب الأوفياء لهم، وأملنا أن يحشرنا ربنا تبارك وتعالى بهذا الإقرار الذي ألزمنا به أنفسنا.

(٧) الحاكم: المستدرك، ١٦٩/٣.

إنني أعتبر نفسي أكثر المؤمنين إثمًا، ورغم هذا فلو انكشف لي عالم المثال عن صورة أحد الصحابة الكرام ﷺ وتراءى لي في الأفق وشاهدته في رؤياي فسأطير فرحًا وسعادةً وأمتلئ بهجةً وسرورًا.

إنني لا أريد أن أحدّث أحدًا بهذا خشيةَ أن ينقطع عني هذا اللطف والإحسان العظيم، وأحيانًا أتغلَّب على قلقي وأحدّث أحدَ أصدقائي المقربين دون إرادة مني، وأقول له: "لقد تجلّى اليوم نجمٌ من دائرة هؤلاء الصحابة في أفق إنسان غير جدير بذلك"، إنهم هكذا بالنسبة لنا...

لقد عكس هؤلاء الصحابة بحقٍّ نور النبوة بمرايا قلوبهم، فكانوا مرآةً حقيقية لهذا النور الخالد ﷺ، وتمثّلوا حياته على أتمّ وجه، ولقد عمدوا -باتباعهم الشديد لإمام الأئمة ﷺ- إلى مبخرة الحقيقة التي كان صدره مجمرَتها ففاضت أنوارهم على الإنسانية كلّها بعون من الله تعالى.

كانت حركةً هادِفةً إنقاذَ الإنسانية في ذلك العصر، فَطُبِّقت على وجهها الأمثل، وإن ما شاهدناه لدى هؤلاء الصحابة ليؤكد لنا إمكانية أن يظهر اليوم مضحُّون يكرسون حياتهم لإنقاذ الإنسانية كما كرّسها الصحابة من قبل؛ لأننا نعلم أن التاريخ عبارةٌ عن تكرُّرِ الوقائع والتشكُّلات، وليس هناك أيُّ سببٍ يستدعي عدمَ تكرُّرها في هذا العصر، سيتكرر ذلك بمشيئة الله تبارك وتعالى.

إننا كنا مضطرّين حتى الأمس القريب إلى ضرب كلّ الأمثلة من عصرِ الصحابة، غير أنه أصبح لدينا الآن فرصة لضرب أمثلة من يومنا وعصرنا الحاليّ، إننا كنا ننتظر هذه الأيام بوعيٍ أو بغير وعيٍ، وعلى ذلك حينما نضرب مثالًا من عصر السعادة ومثالًا آخر من عصرنا ونجمع بين الحلقتين يتحقّق عندئذٍ ما كنّا نصبو إليه.

ولنوضّح المسألة بمثال: هناك مجموعة من الشباب لم يتلذّذوا بحياتهم بعدُ رغم أنهم يتقلّبون في مختلف النِّعَمِ الدنيوية، ويغبطهم الكثيرون على مكاناتهم ودرجاتهم الاجتماعية، ذات يوم جاؤوا لي بقائمةِ أسماءٍ كُتبَ في أسفلِها: "ناشدناك الله أن تدعو لنا ربَّنا أن يعيننا على استغلال كلّ لحظةٍ في حياتنا لخدمة ديننا وأمتنا، فإن حلّ أجلُنا رَحَلْنا إلى الآخرة مزوّدين بثواب الشهادة".

وهذا يعني وجودَ الصحابة من جديد، دعوتُ اللهَ لهم مدَّةً طويلةً حتى يُنْفِقوا أعمارهم في سبيل الدين وأن تختم حياتهم بأجمل خاتمة وهي الشهادة، ودون اعتبار لأهليّتي كتبت اسمي في آخر هذه الأسماء، واستشفعتُ بأسماء هؤلاء الشباب إلى الله وتضرعت إليه أن ينعم علي بإحسانه وفضله وألّا يحرمني من أن أكون في زمرتهم.

إن حال هؤلاء الشباب وآلافٍ مثلهم لَيَعِدُنا بأمور كثيرة تهزُّ قلوبَنا وتدفعُنا إلى غبطتهم، وكلما رأيناهم منهمكين في أداء وظائفهم زادَ أملُنا، ونقول: سيتمّ هذا الأمر بمشيئة الله تعالى.

لأن هناك شبابًا سيمثلون هذا المعنى السامي في أعماق أرواحهم وفقًا لقامةِ وقيمةِ هذا المعنى، وهذا إحسانٌ كبيرٌ ودائمٌ من ربّنا تبارك وتعالى علينا. أجل، لقد ازداد مَن يعتصرون أَلَمًا بهمّ الخدمة حتى عند رقادهم؛ ومن بينهم آلافٌ من الشباب الذين تعيش أرواحهم اليوم هموم الإلحاد والملحدين، وهكذا فهناك جيلٌ جديدٌ على شاكلة هؤلاء الصحابة العظام الذين يُشكِّلون الرعيلَ الأوَّلَ، فهم عزموا على حملِ هذه الدعوة العظيمة، يجاهدون لأداء أعمالٍ تتوافق مع ما كان يفعله الصحابة، ويسعون بحقّ لأداء الوظيفة التي كُلِّفوا بها وقلوبهم تحترق كالمبخرَة التي

اقتبَسَتْ بخورها من النبي ﷺ، ومعهم رسالاتٌ من آمال جديدة، فيا إلهي لا تخذلنا بعيوبنا.

وإذا أردنا أن نلخص هذه المسألة نقول: إنهم قد صعدوا وارتقوا إلى السموات العلى بفضل خصالهم العالية مثل التفاني، والإيثار، ونسيان أنفسهم، بل ونسيانهم أمورهم الخاصة، وإعراضهم عن الملذات المادية والمعنوية في سبيل خدمة دينهم، فلو كنّا نتطلع في الأفق إلى هذه الخصال مثلهم فعلينا أن نشاركهم أفكارَهم نفسَها وأحوالهم الروحية عينَها.

حكمةُ المنع

سؤال: نتطلّع في خِدمتنا إلى إحراز غايةٍ معيّنةٍ، فإن أخفقنا في تحقيقها ينتابنا حزنٌ بالغٌ يؤثّر على وجهتنا الاجتماعية، فهل بإمكاننا الحيلولةُ دون وقوعِ هذا الأمر؟

الجواب: إن صديقَنا السائلَ يُترجم بسؤاله هذا لأمرٍ قد يعتري الكثيرين، ويُعَبّرُ بلسانٍ صادقٍ عن حادثةٍ ألمّت به وما خلّفته تلك الحادثة من تأثيرٍ سلبيّ.

يتطرّق القرآن الكريم إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿**أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى**﴾ (سورة النَّجْم: ٢٤/٥٣)، أي يجب على الإنسان أن يتخلّى عن الطمع، فللّه الآخرة والأولى، فأحيانًا تُفضِي بعضُ الخسارات هنا إلى مكاسبَ هناك، فالله ﷻ هو من يأخذ هنا ويمنح هناك، وأما معرفة ما سيمنحه لنا في الآخرة وما سيهيّؤه لنا من مفاجآت مقابل ما أخذه منا في الدنيا فمتعذّرٌ علينا.

وفي سورة الضحى يخاطِبُ ربنا تبارك وتعالى نبيه ﷺ فيقول: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾ (سورة الضُّحَى: ٤/٩٣)، ومن ثم فإن كانت الآخرة هي أَولى من الأُولى فَلِمَ الحزنُ على ما خسرناه في الدنيا!؟ أليس علينا أن نفكّر في مكسب الغد الأُخْرَويّ ونُسرّ ونحمد الله تعالى عليه!؟

وبإلقاءِ نَظْرَةٍ تدقيقٍ فاحصة على حياتنا العامّة نجدُ أنّ الجميع يتعرّضُ في حياته إلى كثيرٍ من الحوادث المؤيدةِ لما قلناه آنفًا، فبينما كنا نتجرّع الآلام والأحزان في البداية على ما فاتنا رأينا فيما بعد كيف كانت هذه الخسارة إحسانًا ولطفًا إلهيًّا من الله تعالى، فصَمَتْنَا مشدوهين مذهولين إزاء هذا الوضع.

قد يسوقنا الله تعالى جبرًا إلى مكان ما، وربما يكون هذا السَّوقُ وهجران الأهل والأصدقاء صعبًا على نفوسنا في البداية، إلّا أن الله تعالى يجري على أيدينا من الفتوحات ما لو اطلعنا عليه في بداية الأمر لما شعرنا بأيّ حرج، بل وهرولنا إلى ذلك المكان زاحفين حتى.

وأرى أنّ تشخيص هذه المسألة فَضْلَةٌ؛ لأنني أعلم أن عديدًا من الوقائع التي حدثت لكم في الماضي قد تبادرت إلى أذهانكم، وتشخّصت في مخيلتكم الآن وأنا أسوقُ هذه الأفكار.

علينا أن نرضى بما أجراه الله وقدّرَهُ، انطلاقًا من الحكمة القائلة: "الخيرُ فيما اختاره الله"، وهذا القول ترجمةٌ لرضًا يحمل في طياته كثيرًا من معاني التبعيّة والعبوديّة والإخلاص.

وجاء في الدعاء الذي علمنا إيّاه رسول الله ﷺ وأوصانا بأن نقرأه صباح مساء: "**رَضِينَا بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا**"(٨).

فإن كنا راضين عن هذا كلِّه، فلنُسَلِّم بما يرضاه هو، يعني: ينبغي لنا أن نسلّم له وبما يرضاه بكل ذاتيّتنا، وبهذا العمل ربما نخسر أشياء هنا، ولكن نكسب في الوقت ذاته أشياء أكثر هناك، فليترفّقْ صاحب السؤال بنفسه أيضًا.

(٨) سنن أبي داود، الأدب، ١١٠.

هناك أشياء كنّا نتمنّى وقوعَها في بداية الأمر، ثم فرحنا في المستقبل لعدم وقوعها؛ لأن ما قضى الله به كان أفضل ممّا كنا نتمناه من قَبيل: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النِّسَاءِ: ١٩/٤)، وتبيّن لنا أنّ المنعَ أحيانًا يكون هو عين العطاء، فليس الأفضل هو ما نرغبه أو نتمناه، ولكن الأفضل هو ما أراده الله تعالى؛ يعني مشيئة ربنا، وهذا هو السرّ الكامن في روح العبودية، علاوة على ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٢٦/٣)، فكم من أعزّاء أمسِ أصبحوا بؤساءَ وأذلاءَ اليوم، وكم من أذلاء وبؤساء أمسِ أصبحوا سلاطين اليوم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (سورة الْمَعَارِجِ: ٦/٧٠-٧)، إنه تعالى يرى أمورًا ويكشف لنا عن ماهيتها في المستقبل، ولو اطَّلَعنا اليوم على ماهيّاتها المستقبليّة لتحوّلَتْ رغباتنا، وتغيّرت مجريات حياتنا فورًا، لذا ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا﴾ (سورة الْمَعَارِجِ: ٥/٧٠)، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ١٢٩/٩)، لن ينفعك في الدنيا والآخرة سوى نيل رضا الله تبارك وتعالى، فابحث عنه واجتهِدْ في تحقيقه، فإذا وجدته فاسجد لله واحمده طوال حياتك.

فاتر الهمّة وتارك الخدمة

سؤال: كيف نتصرف تجاه إخوتنا المسلمين الذين تهاونوا في خدمة دينهم وأمتهم، وفقدوا نشاطهم وانفعالهم في القيام بأفعال الخير؟

الجواب: هناك إخوة لنا تهاونوا في خدمة دينهم وأمّتهم لأسبابٍ شتّى، ويمكن أن يقع هذا الأمر في كلّ وقت، ولكنهم مع ذلك يبقون إخوة مؤمنين بالنسبة لنا، ولهم أيضًا كلّ ما يستحقّه المؤمن من منزلةٍ واحترام حسب تعاليم القرآن والسنة، إذًا فالمعيار هنا -كما في كلّ أمرٍ- هو القرآن والسنة، فليس لنا أبدًا أن نغتابهم، لأن الغيبة حرام، وأكلٌ من لحم الأخ ميتًا، أي تستوي إهانتك له قولًا أو فعلًا وسلْقَكَ له في قِدرٍ ثم أكلك من لحمه، ولكن هناك حالات تجوز فيها الغيبة، وكتب الفقه تشرحها بالتفصيل، إلا أنني لا أوافق على الاقتراب من تلك الحالات، فالقليل من الناس مَن يستطيع التصرف بتوازن معها؛ فليس من الصحيح قيام أيّ شخصٍ باستعمال ذلك الحقّ والاقتراب من تلك الحدود.

هذه ناحيةٌ من نواحي هذه المسألة، أما الناحية الأخرى، فهي أنّ ما نقوله بحقّ ذلك الأخ سيصل إلى مسامعه في يوم من الأيام، فيكون هذا

سببًا في ابتعاده عنا أكثر فأكثر، ولكوننا نحن المتسببين في هذا فالمسؤولية تعود علينا، وليس هذا بالإثم الهين؛ لأنّه ما من شخصٍ يملك صلاحيةً وحقًّا في إبعادِ وحرمان أيّ فرد من هذه الدعوة والخدمة الإيمانية المباركة، وقد لا يكتفي هذا الشخص بالابتعاد عن الدعوة التي كان في السابق يفديها بروحه، بل ينقلب عدوًّا لها، ولما كانت الخصومة للدعوة الحقّة ذنبًا كبيرًا وعظيمًا فإنّ المتسبب في مثل هذه الخصومة سينال الإثم نفسه.

كثيرًا ما يقوم بعضُ الناس بنقد الدعوة أو الخدمة التي لا يكونون ضمن دائرتها ويستهينون بها، فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار فإن مِن الحكمة توقّع جميع التصرفات من الذين ابتعدوا عن الجماعة على نسبة ابتعادهم، فذلك هو قدَرهم المرّ وحظّهم التعس، وهذه نتيجةٌ مؤلمة تدعو إلى الرثاء والشفقة، ووظيفتنا هي أن نتعامل معهم المعاملة التي كنا نودّ أن يعاملنا الآخرون بها لو كنا في موقفهم، ثمّ لا نستكثر عليهم مثل هذه المعاملة.

والرسول ﷺ كان يفعل الشيء نفسه، إذْ لم يقلْ شيئًا ضدّ أي شخص وقع في الخطإ أو الزلل أو قلّ جهده في ذلك العهد، ولم يغتبْ أشخاصًا كان يعرف نفاقهم أمثال عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي كان يتظاهر بالإسلام، ولم يقل ضدّه كلمةً واحدة تُشمّ منها رائحة الغيبة مع أن الصحابة ﷺ طلبوا منه قتله بعد أن ألصق فريةً ملعونةً بسيدةٍ طاهرةٍ عاليةِ المقام مثل أُمّنا عائشة ﷺ... بل قال النبيُّ ﷺ لهم: "**دَعُوهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**"(٩)، ولو قمتم بتدقيق جميع كتب الأحاديث لوجدتم أن سيد العالمين رسول الله ﷺ لم يقل في حقّ أيّ مؤمنٍ أيَّ كلمةٍ قد تزعجه أو تنال منه، فإن استطعتم العثورَ على مثل هذه الكلمة فإنني

(٩) **صحيح البخاري**، تفسير سورة المنافقين، ٥.

سأتخلى عن كل ما قلتُه سابقًا أو ما سأقوله مستقبلًا، كلا لن تجد كلمةً واحدة في هذا الخصوص، وهذا هو المقياس الذي يجب أن يكون؛ لأنه مقياسٌ لن يضلّ، فعلينا ألّا نغتاب إخواننا حتى ولو بكلمةٍ واحدة.

وإذا نظرنا إلى سيرة الرجال القدوة في الخدمة الإيمانية والقرآنية مثل الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورسي سنرى أنه عندما ابتعد عنه بعضُ تلاميذه لفترةٍ من الزمن ثم عادوا ورجعوا إليه مدحَهم وركّز على رجوعهم فقط وأثْنى على ما هم عليه أثناء الرجوع، وهذا هو ما بقيَ في ذاكرتنا عنهم، بقيَ في ذاكرتنا أنهم رجعوا، ولكن كان من الطبيعي أن هذا الرجوع سبقه فراق وبُعدٌ ولكن ذلك الزعيم الكبير الذي كان دقيقًا جدًّا في جميع كلامه وتصريحاته ركّز فقط على رجوعهم، ولم يكتب سطرًا واحدًا عن مفارقتهم وابتعادهم، ومع أن الكثيرَ في عهده افترَوا عليه وهاجموه، إلا أنه لم يقل كلمة واحدة صريحة تُفيد الغيبة ضدّ أحدٍ منهم ولم يذكر بصراحةٍ اسمَ أحدٍ منهم، لأنه عدّ هؤلاء الأشخاص إخوانًا له من جهة الإيمان ولم يقابل تهجّمهم عليه بكلمةٍ واحدة، فالإيمان والوقوف ضد الكفر واستحقاقُ الجنة في النهاية ليس من الأمور التي يمكن التهوين من شأنها؛ لذا فكما نهرب من الأفاعي والثعابين ونبتعد عنها، علينا كذلك أن نتجنّب ونحذر من اغتياب إخواننا.

من الممكن النظرُ إلى المسألة من زاويةٍ أخرى؛ فالعقوبات التي تُطبق في الظروف الاعتيادية في الإسلام لا تُطبق في جبهة القتال، أي إنّ مَن يسرق أو يزني أو يفتري في جبهة القتال لا تُطبّق عليه عقوبات هذه الأفعال، والحكمة من هذا الحيلولة دون لجوء المذنب -وهو يحاول إنقاذ نفسه من العقاب- إلى صفوف الأعداء، لكن ماذا يحدث إن التجأ

إلى الجبهة المعادية؟... أما هو فيقع في خسران أبَدي، وأما نحن فنكسب عدوًّا يعرف جميع أسرارنا، وكِلا الأمرَين مرٌّ وخسارة لنا، لذا لا بدّ من ضبط المسألة للضرورة القصوى، فكان من الضروري التعامل مع هؤلاء بمنتهى الحكمة وبأجمل أسلوب.

مثلًا قد يبتعد أحدُ إخواننا عن الخدمة الإيمانية والقرآنية بسبب الخوف أو بسبب الرغبة في منصبٍ ما، فيخرج عن دائرتِنا حَيطةً وحَذَرًا، وحمادى القول له هنا: إننا نتفهّم دواعيه وأنه تصرّف كما يجب، ونعمَ ما فعل، فلا يشغلنّ باله بأنه وقع في الذنب بصنيعه هذا، ويجب علينا أن نجعله يصدّق ما نقول؛ حتى لا نسد المنافذ إزاءه، فقد تتجدّد علاقاتنا معه بعد سنوات، وقد يفهم الحقيقة فيما بعد ويرجع إلينا، فإن اعترف بأنه كان على خطإ وأننا كنا على صواب، عندئذ نتعامل بكلّ مروءة قائلين: "أنت محقٌّ الآن أيضًا".

ولا ننسى أبدًا أن مَن يغتبْ الآخرين يفقد ثقةَ المستمعين له، والجماعة التي تهتزّ فيها الثقة بين أفرادها لن تستطيع أبدًا حملَ أمانة الحقّ الثقيلة.

ثم قد يوجد أشخاصٌ تربطهم بمن تتمّ غيبته علاقاتٌ من قبيل القرابة أو المودّة أو الفكر المشترك، فتُثيرُ هذه الغيبة في أنفسهم حساسيةً لا تؤدّي بدورها إلا إلى خسارة في جبهتنا.

فقد يؤذينا باغتيابه لنا، ولكن علينا ألا نقابله بالمثل، وأن نحافظ على علاقةِ التوازن فيما بيننا؛ إذ يجب أن نكون بعيدين جدًّا عن الانتقام لكرامتنا، أو التورّط في مسائل شخصية، وعلينا أن نضحّي بكلّ شيء في سبيل دعوتنا السامية، ففي الوقت الذي يُنال فيه من كرامة رسولنا ﷺ، وتُزيّف فيه حقائق القضايا الإسلامية؛ لا نستطيع جعل القضايا الخاصة

بنـا موضوعَ السـاعة، بل لا نسـتطيـع أن نجد الوقت حتـى لمجرّد التفكير فـي ذلـك. إن أفضل معونةٍ يمكـن تقديمُها اليوم لأيّ إنسـانٍ هي المعونة المقدّمـة لإنقـاذ حياته الدينيـة، ووظيفتنا نحن هي الإسـراع لنجدة إخوتنا وإعانتهم.

مفهوم الأخوّة

سؤال: كيف نرسّخ مفهوم الأخوة بيننا؟ وما رأيكم في وضعنا الحالي؟

الجواب: قبل الدخول في هذا الموضوع أودّ أن أنبّه إلى المسألةِ التاليةِ:

لا بدّ من مراعاة الدقة البالغة عند إسناد أعمالنا الصالحة بل وكل أمر اختياري أو إرادي نقوم به لله تعالى، وعلى الإنسان أن يُقنِعَ نفسَه رغمًا عنها بهذه المسألة، بل لا بدّ وأن يكون حذرًا في المواضع التي تبدو وكأنها مترتبة على أفعاله في الظاهر، وينبغي للإنسان كذلك أن ينأى بنفسه عن تخصيص شيء لها، قائلًا: كلا، كل هذه الأشياء ملك له ﷻ، فلا تحاولي يا نفس أن تنسبي شيئًا لك، وعلى الإنسان المؤمن أن يتجنب كافة أنواع الشرك، بل لا بد وأن يكون غيورًا إزاء هذا الأمر؛ فإن الله ﷻ يغار أن يشرك به، فلا قدر ولا قيمة لأي عمل عنده لو أُبتُغي به غيره، ومن ثم لا بد أن تتسم خدماتنا -أيًّا كان اسمها وحيثما وقعت- بالإخلاص، وأن يُنشد فيها رضا الله تعالى حتى تحظى بقدرها عند الله ﷻ.

أما المسألة الثانية التي لا بد من الالتفات إليها فهي المحافظة الدائمة على المعنى الذي يُشيرُ إليه السؤال، وتحويله إلى واقع عمليّ.

إن الأخوة بمستوى تفاني البعض في البعض هي من أكبر العوامل التي تؤثّر في الآخرين، فالافتخار بمزايا الآخرين وفضائلهم وتقبل الفرد لها وكأنها مزاياه وفضائله هو من أهم الأسباب التي تفضي إلى ترابط أفراد الأمة بعضهم ببعض، وإثارة روح الإقدام في نفوسهم، وإشعال قابلياتهم وإلهابِ استعداداتهم حتى تصير جمرات متعددة، كما تكون وسيلة لنزول الرحمة الإلهية كالغيث زخًّا زخًّا، فلو تكاتفَ المجتمع كالجسدِ الواحدِ، واتّحد على أساسٍ من الوفاق والاتفاق لحظيَتْ روحُه وقلبه بالعون والنصرة والتوجيه الدائم من الله إلى كلّ ما هو إيجابيّ وجميلٌ ومستقيمٌ، ولذا يكاد ينعدم الخطأُ في شخصِهِ المعنويّ.

وقد تُبدَّلُ الأخطاء التي يرتكبها أفراد ذلك المجتمع إلى حسنات نتيجةَ صدقِ وإخلاص نواياهم، لكن من المتعذر أن يتحقّق ما قلناه عند من تشتَّتَتْ قلوبُهم وإن كانوا على المنهج نفسه، وعلاوة على ذلك فإن الانحراف في المنهج وما يتبعه من اختلافات يؤدّي إلى الدخول ضمن الدائرة الفاسدة التي يصعب الخروج منها مطلقًا، وعندما يدخل الإنسان إلى مثل هذه الدائرة الفاسدة يُصبح مثل ذلك الذي يهرول مُولّيًا ظهره لهدفه، فيبتعد مع كل خطوة يخطوها عن هدفه وغايته الأساسية.

بيد أن الرسول ﷺ والصحابة هم من حملوا هذه الأمانة على عواتقهم في فترة ما، يعني أننا لو تناولنا المسألة وفقًا لقانون "السبب والنتيجة" لرأينا أنه من الضروري لهؤلاء الذي سيحملون هذه الأمانة على عواتقهم من جديد أن يتحلّوا بنفس الشعور والسمات التي كان عليها الصحابة، ربما لا يمكن أن نجاريهم تمامًا من ناحية الكيفية، ولكن علينا ألا ننسى أنه بقدرِ تشبُّهنا بهم بقدرِ ما يُمكننا القيام بما كانوا يقومون به.

وهذا الوضع ينطبق كذلك على مفهوم الأخوة، فعلينا أن نعرف كيف وبأيّ شكلٍ حقّق هؤلاء مفهوم الأخوة فيما بينهم حتى بلغوا بذلك أعلى المراتب، وعند ذلك لن تتغيّر هذه القاعدة والنتيجة بالنسبة لنا.

منذ نعومةِ أظفاري وأنا أقرأ عن حياة الصحابة ﷺ، وبعد فترة معيّنة أخذتُ أُحدّث الناس عنهم، وكنت أقِف أحيانًا مشدوهًا مذهولًا أمام لوحات الأخوة التي يمثلها هؤلاء، معتقدًا وكأن تلك الصفات خاصة بهم دون غيرهم، أو هي نوع من الطوبيا التي لا سبيل إلى تحقيقها على أرض الواقع حاليًا، وبعد ذلك شاهدت عند البعض أمثلةً حيّةً لهذا المعنى فاقتنعت تمامًا بأن مثل هذه الأفكار والصفات يمكن معايشتها في الوقت الحالي، حتى إن أمثلة التفاني التي كانوا يتعاملون بها هؤلاء الناس مع بعضهم أثرت في الآخرين كثيرًا؛ لدرجة أنني سمعت بنفسي شخصًا يقول بنبرةٍ مفعَمَةٍ بالحيرة والإعجاب بعد أن أتاهم ولمس بإعجاب هذه الأخوة فيهم: يا الله، ما هذه الأخوة! ما زال هذا القول وما اكتنفه من نبرة لذيذة يحافظ على حيويته في ذاكرتي، ولا جرم أنه أسعدني سعادة بالغة، نحن نقر ونعترف بهذا الخلق الرفيع الذي شاهدناه بين المسلمين، لكننا نرى أن هذا ليس كافيًا، بل ينبغي لنا ألا نشبع من مثل هذه الأخلاق؛ لأن شعور الأخوة قد يكون كافيًا اليوم، ولكن قد لا يكون غدًا بالقدر الذي تحتاج إليه أمتنا لاجتياز العوائق والعقبات التي يحتمل أن تكون حجر عثرة في سبيل تقدمها وعظمتها.

وإذا ما تناولنا المسألة على نطاق أوسع وأجرينا تقويمًا يشمل العديد من الناس الذين وقعوا في رق النظم والأيديولوجيات بالمعنى الحديث لأدركنا جيدًا كيف كان فكُّ الرقبة عقبةً حقًّا.

أجـل، لقد كان فـكُّ الرقبة عقبة، وكذلك إيثار المرء أخاه على نفسـه رغم ما يعيشه من ضيقٍ وضغوطِ العيش هو عقبة أخرى.

وتقديم الآخرين على نفسه في الفيوضات المعنويّة فضلًا عن المادية، واعتبـار ذلـك وظيفـة ملقاة على عاتقـه لهو عقبة أخرى على الإنسـان أن يقتحمهـا، وتجـاوز هـذه العقبة منعقدٌ علـى التمثل بالصحابـة ﷺ أيضًا، الذي أبهر أحدُهم وأذهل ملائكةَ السـماء بحسن صنيعه مع ضيفه، عندما أطفـأَ المصباحَ وأظلـمَ الغرفة حتى لا يرى الضيفُ ما يفعله، وكان يذهب بملعقته ويأتي بها فارغة حتى يشـبع الضيف، فرسـم بذلك صورة نورانيّةً على الإنسان أن يتمثلها[١٠].

مثال آخر: لما ارْتَثَّ يوم اليرموك الحارث بن هشـام وعكرمة بن أبي جهـل وعيـاش بن أبي ربيعـة ﷺ، فدعا الحـارث بماء يشـربه، فنظر إليه عكرمـة، فقـال الحارث: ادفعوه إلى عكرمة، فنظر إليه عياش بن أبي ربيعة فقـال عكرمـة: ادفعوه إلى عياش، فما وصل إلى عياش ولا إلى أحد منهم حتى ماتوا وما ذاق الماء أحدٌ منهم ﷺ[١١].

هـؤلاء هـم الصحابة الذين نزل فيهم قـول الله تعالـى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٥٩/٩).

وإطعـام اليتيم عقبة أخرى، ولو أطلقنا العنان لأسـاليب المجاز لظهر أمامنـا كثيـر مـن معاني اليتـم، فالذيـن حُرمـوا الثقافة الإسـلامية ووقعوا فريسـةً للآخرين بسـبب الحاجـة الناجمة عن الحرمان يعـدّون من صنف اليتامى أيضًا، وهؤلاء علينا أن نأخذ بأيديهم وندرس السبل التي توصلهم

(١٠) انظر: صحيح مسلم، الأشربة، ٣٢.

(١١) ابن كثير: التفسير، سورة الحشر: ٥٩/٨؛ الأصبهاني: الترغيب والترهيب، ٢٦٦/٢.

إلـى أوج الكمـالات، وأن نلَقِّنَهـم ما يحتاجونه للوصـول إلى هذه الغاية، وهذه عقبةٌ أخرى مختلفة تمامًا.

أمـا النقطـة التي أنشـدها من وراء هـذا الموضوع الـذي تطرقْتُ إليه مُطْنِبًا حتى أنبّهَ على العقبة المحتمل أن تكون حجرَ عثرةٍ أمامنا فهي: يبدو شـعور الأخـوة كافيًـا لنا حاليًا، إلّا أننـا في حاجة إلى ازديادِ هذا الشـعور الدوام حتى نحتضن المسـتقبل على سـعته، وتتمكَّنَ أُمَّتُنا من السير بأمان إلى مستقبلها المشرِقِ.

ولـذا لا بـد مـن علوّ الهمّـة إزاء ذلك، وأن نقول باسـتمرار: "هل من مزيد؟".

الشحذُ الروحيّ والشدّ المعنويّ

سؤال: إلامَ يكون الشدُّ المعنويُّ عند المؤمن؟ وكيف يجب أن يكون؟

الجواب: الشدُّ المعنويّ بالمعنى الإيجابي هو شعور الإنسان برغبة عارمة إزاء الأمور الحسنة وتلهّفه عليها وتشرّبه بها وتيقّظه تجاهها، إنه توقانُ الإنسان -بعشق- للدين والقضايا والأفكار والمشاعر الدينية، والتلوي في ألم وأسًى من أجلها، والقلقُ بهذا الخصوص، والتفكيرُ فيها ليلَ نهار كما يفكّر الشخص في محبوبته، والقيامُ والقعود بها، وترقّبُ ميعادِ أن يكون الدين روحًا للحياة، وكأنه يترقّب الوصال مع محبوبته، وإيمانُه بأن أعظم أمانيه وأسمى غاياته في حياته هو توجيهُه الإنسانيةَ -بدءًا من أمته- إلى تلك الأفكار والمشاعر الدينية.

فضلًا عن ذلك لا بدّ للإنسان أن يشعر بالبغض والنفور من الكفر والجحود والضلالة وسوء الأخلاق حتى يحافظ على حيويته ونشاطه، وعلى العكس فإن حدث وأظهر الإنسان قليلًا من التراخي والتقصير ما استطاع أن يفعل أيَّ شيء، وما تمكن من إنجاز أي خدمة.

ولا يمكن تحقيق ما يرضي الله إلا عن طريق السعي والشوق العارم في سبيل هيمنة ما يأمره ويرضى عنه من الفكر والفلسفة والوئام الاجتماعي على الحياة.

فإن لم يكن لدى الفرد إصرارٌ وعزمٌ على مكافحة كل أنواع الانحراف والتفلّت أو إن كان يدنو من الكفر وشتى أنواع الانحراف ولا ينزعج ولا يتأثر سلبيًا، كل هذا يعني أنه فقد شدّه المعنويَّ تمامًا واستسلم للعجز كُلّيّةً.

وموقف النبي ﷺ بهذا الخصوص جليٌّ واضح، يقول ﷺ: "**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**"(١٢)، ويقول ﷺ حول مسألة الحفاظ على الشدّ المعنوي تجاه جميع الأوامر والنواهي وتحديد موقفنا منها "**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(١٣).

أجل، من أحسّ ووجد في ضميره هذه الثلاث فقد استشعر حلاوة الإيمان.

أولًا: "**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**"؛ يعني ينبغي ألا يوجد شيء يفضُلُهما، فتبادلُ الحبّ الفطريّ بين الأبوين وأولادهما -مهما كان عميقًا- لا بدَّ أن يسبقه -وغيرَه- علاقةُ الإنسان بالله ورسوله ﷺ من حيث العقل والمنطق والفكر والتقدير.

إن الحبَّ والتعلّقَ بالله ورسوله ينطلقان من التفكّر والشعور والبحث والاكتشاف، فإن استشعر الإنسان وتذوّقَ -بالبحث والتفكُّرِ- حلاوةَ هذا الحبّ في وجدانه أيقَنَ بِيُتْمِها وألا شيءَ يعدلها ألبتَّة.

وهذا هو الوصف الأول المنشود في المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان: أن يقدم الله ورسوله على كل شيء، وبعبارة أشمل: أن يُفَضِّلَ أركانَ

(١٢) صحيح البخاري، الإيمان، ٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٧٠.
(١٣) صحيح البخاري، الإيمان، ٨.

الإيمـان على كلّ شـيءٍ، فـإذا ما امتلأت الصدور بحب الله، واسـتضاءت الوجوه بنور الله نستشـعِرُ كلّ شـيء، ونشـعرُ بمعنى الوجود، وإلا فالعدم والوجود سواء.

ثانيًا: إن المؤمن الذي امتزج بهذا المفهوم يُحِبُّ جميـع المؤمنين بل يحبُّ كل الكائنات لا لشيءٍ سوى لله الذي يفنى في محبَّتِهِ ﷺ، يحبهم بلا غرض وبلا انتظارِ مقابل. أجل "**يحب المرءَ لا يحبّه إلا لله**".

وإنّ هذه المسألة لَتُعتَبَرُ عامِلًا مهمًّا للغاية في تشكّل مجتمـع الطمأنينة والوجدان الذي يرتضيه الله، أما الأمر المهمّ الآخر الذي ذُكر في الحديث -**ثالثًا**- فهو اتخاذ موقف ضد الكفر والشدُّ المعنوي تجاهه: "**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**". أجل، لو لم يكره المؤمن أن يعـود فـي الكفر بعد أن أنقذه الله منـه كما يكره أن يُقذفَ في النار لَمَا ذاق طعمَ الإيمان، أي إنّ على المؤمن أن تأخذه رعشةُ وينتابه التقزُّزُ والتقبُّض عن الكفر والجحود والضلالة وعن كلّ ما هو بغيض وملتوٍ ومنحرِف.

إن مـن خلا قلبه من البغض لهذه الصفات التي ذكرناها آنفًا لا يمكن أن تكون لديه أدنى رغبة في أن يتلاشى الكفر ويحل محله الإيمان فيهيمن على قلوب الأجيال، ولتحقيق هذا لا بد وأن يشـعر الإنسـان بعشـقٍ عارمٍ للإيمان وبُغضٍ دفينٍ للكفر.

أجـل، إن اتخـاذ موقـف مناهضٍ للكفـر الذي يترتب عليـه كل أنواع الشرور والمفاسد والفوضى والاضطراب والتفلّت وعدم الاستقرار شرطٌ جِدُّ مهمٍّ في سبيل حصول المؤمن على الشدّ المعنويّ، ومن أجل صالح الدولة والأمة بل والإنسانية بأسرها.

إن أعظم الجرائم التي ارتكبها أعداء الدين والدولة ضدّ هذه الأمة هي تَغْيِيبُ وإذابة شدّها المعنوي وتبديد روحها وقِيَمِها الأساسيّة، وهذا الفكر الملعون أطلق على الجهاد بغيًا، وعلى النصر احتلالًا، وحوّل أمةً جسورةً عريقةً إلى قُطْعَان من الغنم وعلى حدّ قَول الشاعر «محمد إقبال» فلم يَعُد يؤثّر فيها احتلال أو استغلال، أو تلاعبٌ بعزتها وشرفها، فمثلًا إن انتُهك عرضها، ودُنِّس شرفها، ولم يعد هناك ما يسمى شرف واعتبار، واخْتُرِمَ كلُّ شيء فيها فلن يكون بوسعها حتى أن تتأفَّف؛ وذلك لأنها فقدت شدَّها المعنوي.

وكما يمكن للإنسان -بفضل الشد المعنوي هذا- أن ينال كل ما يرغبه ويتوق إليه، فكذلك يمكنه به تجنّبُ ما لا يحبّه الله أو يُناقِضُ رضوانه ﷻ.

والخلاصة: إن الشدَّ المعنويَّ هو رغبةٌ مُلِحَّةٌ في الإيمان، ومَقْتٌ بغيضٌ للكفر والضلالة والطغيان، ولا يَمُتُّ إليه بِصِلَةٍ الاحتشادُ والنزاعُ في الشوارع.

إن ذا الشد المعنوي هو مَن يستشعرُ في وجدانه انفعالًا داخليًّا كأنّه ناجمٌ عن ألف مشاجرة ومشاجرة...

هو الذي يتضوّرُ بما تجرّعه ألوفًا من المعاناة...

هو الذي لا ينشغِلُ سوى بمشاكلِ أمّته...

هو الذي يرضى أن يُقذفَ به في جهنّم، وأن يموت ويحيا مرّاتٍ ومرّات فداءً لأمّته وفي سبيل نجاتها...

هو الذي يستشعر في وجدانه بهموم مجتمعه وأمّته...

هو الذي يتحسّر أنينًا، ويتضوَّرُ أَلَمًا، حيالَ مَن يُشرِفون على جهنّم ويتتابعون سقوطًا فيها كحلقات السلسلة المربوطة ببعضها...

هو الذي يحمِلُ في وجدانه هموم أصحاب الضمائر المعذّبة ممن بلا خلاقَ لهم بالإيمان...

هو مَن تتّقِدُ في أعماقه نار الشعورِ بالمسؤوليّة، وجذوة الشفقة فيقول: كيف يتحمل هؤلاء حياة المعاناة هذه، وكيف يواصلون حياتهم في هذا الجو الخانق من الكفر والضلالة؟!

ها هو ذا إنسان الشد المعنويّ!

إن أمثالَ هؤلاء يُحرِزون كلَّ يومٍ مرتبة الشهادة والجهاد بما يحملونه من الأحاسيس الإنسانية النقية، لذلك لا يمكن أن تُخيفهم أو تُثَبِّط من عزيمتِهم أو تقودهم إلى الفتور والتراخي صعوبةُ الظروف، ولا ضيق السبل، ولا تتابع الظلمات، ولا سيطرة الضباب والدخان على البيئة حولهم، بل لا يمكن لهذا كلّه أن يؤثّر فيهم فضلًا عن أن يلوي أعناقهم للكفر أبدًا، وهذا ما نقصده بالشد المعنوي.

فالمجتمع حين يفقد شدَّه المعنوي كبِر عليه أربعًا، لأنه ميْتٌ، وإن كان حيًّا صوريًّا، وحتّى تلحقَ أجسادهم بأرواحهم الميتة يسلط الله تعالى الظالمين عليهم فيسحقون أجسادهم لِتُقْبَرَ مع الأرواح.

الموت يبدأ أوّلًا في الروح والقلب، ثم يسري إلى الجسد، أما من لم تمت أرواحهم فإنّ الله يرعاهم فلا تسحقهم أقدام عدوهم، وبالعكس فإن الهزيمة المعنوية تعقبها هزيمةٌ مادّيّة.

فضلًا عن ذلك فإن رغبة هؤلاء في حياة دينيّة ما هو إلا وهم وعبث، لأنّ مَن لم يحافظوا على شـدّهم المعنويّ -أيًّا كانوا- لا عاقبةَ لهم سـوى الموت.

فـإن كنـا ننتظِرُ انبعاثًـا جديدًا، فَلْنَعْلَـمْ أن ذلك يقـع علـى عواتق من يُحرِزُونَ الشدّ المعنوي.

والله أعلَمُ وهو المستعان.